

الدكتور فجر جودة النعيمي



صورة المجتمع العراقي في مرحلة ما بعد الخراب

Culture of Death:
The Image of the Iraqi Society in Post-Wreckage Era



ثقافة الموت

صورة المجتمع العراقي
في مرحلة ما بعد الخراب

سلسلة إصدارات



د. فجر جودة النعيمي

ثقافة الموت

صورة المجتمع العراقي
في مرحلة ما بعد الخراب

Culture of Death:

The Image of the Iraqi Society
in Post-Wreckage Era

الكتاب: ثقافة الموت
صورة المجتمع العراقي
في مرحلة ما بعد الخراب

الكاتب: د. فجر جودة النعيمي

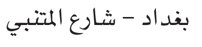
الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ /٢٠١٧م

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الجواهري

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي



البريد الإلكتروني:

E - Mail: daraljwahere@yahoo. com

موبايل: 07702910090

بغداد - شارع المتنبي

بيروت - لبنان

دمشق- سوريا

الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح

إهـداء

إلى التي كانت تقرأ الحروف قبل أن أكتبها لأنها كانت هي التي تكتب في عقلي ووجداني كل الكلمات التي أريد ان أقولها.

ثم حين تهبط الكلمات على الورق من غير مدرج للهبوط تكون أول من يقرأها وأول من يبصم على سلامتها.

هي الناقد الاول الذي يستحق بضعة أسطر عرفانا وبضعة أسطر اعترافاً لها بسلامة الذوق وأمانة النقد.. زوجتي.

أما أولادي....

سنان... مازال يحمل بصماتي رغم انه تجاوز الثلاثين

سالي... هي التي علمتني كيف يكون الأبناء اغنى من الآباء بغير كيس نقود

اما سارة... فإنها النسخة الأكثر توهجا لأحلامي

ولم يبق غير نور الصغيرة التي تكبرني بألف عام

لهم كل الحب، هم عالمي الأليف، الذي لولاه

لكنت الأكثر توحشا بين الوحوش

شكر وتقدير

شكر خاص للآخ العزيز الدكتور **سعدون الدليمي** وزير الثقافة السابق ووزير الدفاع وعضو مجلس النواب العراقي لتبني طباعة هذا الكتاب في المركز العراقي للبحوث الاستراتيجية الذي يتراسه.

شكر للأخ العزيز **د. حميد الهاشمي** الذي اعاد ترتيب اوراق هذا الكتاب وفق احدث البرمجيات المعتمدة.
وشكر للأخ الصديق الأديب الشاعر **عبد الرضا اللامي** الذي قرا مسودة هذا الكتاب بعين الناقد.

فهرس المحتويات

المقدمة ١٣

سقوط الدفاعات الأخيرة

لمنظومة القيم الاجتماعية في العراق ١٩

مقدمة ٢١

عواصف التغير ٢٣

الكذب الازرق ٢٧

الجار والمجرور ٣٢

اللامعيارية ٣٤

دين الكهف ودين الغابة ٣٦

عندما يمرض المجتمع ٤٣

حريق في زنزانة ٤٥

أفيون الثقافة ٤٧

المجتمع الجثة ٥١

دورة النفاق ٥٤

رأسمال الحافي ٥٦

صناعة الأصنام وعبادة الأصنام ٦١

المقدس ٦٣

سحر الصنم ٦٨

أحجار بدم ولحم ٧١

فوضى الرموز الثقافية ٧٥
اللغة وعاء المعرفة ٧٧
الوظيفة الاجتماعية الاخلاقية ٨٥
الوظيفة الاقتصادية ٨٨
الوظيفة الدينية ٩٠
الوظيفة السياسية ٩١
الوظيفة النفسية – العاطفية ٩٢
خلاصة ٩٤

الاحباط الاجتماعي
مع اشارة خاصة للشباب العراقي ٩٧
الصورة البائسة ٩٩
طبيعة الاحباط ١٠٥
النتائج المباشرة للاحباط ١٠٥
العدوان المباشر ١٠٧
اللامبالاة ١١٠
النمطية (الرتابة) ١١٠
الانحدار ١١١
رد الفعل على الاحباط طويل الامد ١١٣
الشباب العراقي والاحباط ١١٤
مواجهة الإحباط ١١٦

النزعة الهروبية في الثقافة العراقية........ ١١٩

البيئة الضاغطة........ ١٢١

ماهية الثقافة........ ١٢٣

التسرب ظاهرة نفسية - ثقافية........ ١٢٦

داخل الجماعة / خارج الجماعة........ ١٢٧

جماعة الـ(نحن) وجماعة الـ(هم) وتطبيقاتها في العراق........ ١٣٠

العوامل غير المباشرة للتسرب........ ١٣٢

الجماعة والقيادة........ ١٣٢

العوامل الاقتصادية والادارية........ ١٣٥

خلاصة........ ١٣٨

التوصيات والمقترحات........ ١٤٠

المراجع والمصادر........ ١٤٤

فهرس الاعلام........ ١٤٧

الملاحق........ ١٤٨

Abstract........ ١٥٧

المقدمة
introduction

منذ ثلاثة آلاف سنة تنبأت عرافة بابلية، لا اعرف اسمها ولا اسم أبيها ولا عشيرتها، ولا ادري شيئا عن هويتها او عنوان بيتها، كل الذي اعرفه انها امرأة بابلية من أصول سومرية، كانت قد تمردت على أسلوب البغاء الديني الذي اخترعه الكهنة في معابد بابل القديمة، وكتبت نبوءتها على لوح طيني مهرته بشمس حارقة ليبقى شاخصا أبديا لصرخة أنثى كانت تنام بين فكي كاهن محترف اجاز مزاولة الدعارة في المعابد قبل الزواج، لكي تبقى الأنثى هدفا لأصحاب النفوذ وتجار الجنس ومحترفي النخاسة. هذا الاستهتار بالجنس البشري مازال يمارس في طقوس «كوخ العروس» لدى بعض الأقوام البدائية، حيث تباح العروس لرجال القبيلة قبل ان تحمل نصف جثة الى بيت العريس. MacIver and Page (١٩٦٧) اما نحن فمازلنا نمارس حبس الأنثى تحت جلدها بواسطة سجان محترف، فيما يمارس السجان نفسه كل أنواع العهر العقلي والاجتماعي والنفسي دون ان توضع الاصفاد في قدميه.

العرافة قالت:

«انه سيأتي زمان تضيع فيه الحقوق وتتبدل فيه نواميس الخلق حتى يصبح الحق باطلا والباطل حقا، وفيه ينهب الناس بيوت آبائهم وإخوانهم وجيرانهم، وفيه يحكم أهل الجهل والسوقة وارباب السوابق، فيعم الهرج والمرج، حتى الأشجار والاحجار والدواب تلوذ مذعورة من شدة الخوف، ويضطر الناس الى تبديل أسماءهم والقابهم وأنسابهم، ويتحول اللص الى شرطي والمعلم الى راقص شعبي ويتحول الطبيب الى كاهن يعالج الناس بالأحجية بدل الأدوية، ثم ان دماء ستسفك واعراضا ستنتهك وايد ستقطع، وسيكون الجوع رديفا للغنى يجتمعان في نفس النقطة التي يلتقي فيها الليل والنهار».

هذا هو محتوى النبوءة، وهي في كل حال نذير شؤم لبلاد تحكم أهلها شهوة الدم. لقد تحققت هذه النبوءة بالحرف منذ ان جاءنا الغرباء في ٢٠٠٣ مع الغزاة بالمعاول والجرافات وأدوات السطو والذبح، فنهبوا بغداد ثم نحروها ثم اغتصبوها ثم استباحوها نهارا جهارا ولم يتركوا فيها حجرا على حجر، بمباركة الاحبار والكرادلة والفقهاء، ومنذ ذلك الحين نشأ مجتمع الحافة. ومجتمع الحافة، هو المجتمع الذي يقف افراده على مسافة متساوية بين هؤلاء وأولئك؛ يأكلون مع الذئب وينامون مع الراعي، يميلون للغالب ولو كان باطلا، ويبيعون نصف دينهم بدينار. مجتمع تتبدل فيه الولاءات والمرجعيات والعشائر والمناطق والعهود والمواثيق

كلها بدقائق، ويحل النقيض محل النقيض والغريب محل القريب والمجرم محل البريء والجاهل محل العالم والوضيع محل الشريف. اننا نقف امام مجتمع يتبدل الناس فيه اسرع من الذرات والاليكترونات والنيوترونات، مجتمع يتبدل ستين مرة في اليوم. شئ مرعب ان يتبدل الانسان من مواطن أمين الى سارق محترف يسرق بلده في وضح النهار ويسطو على مدخرات اولاده ويساوم سرا على عطر زوجته، وبسبب ذلك تصبح السرقة والكذب والنفاق حلالا زلالا. والخطير في ذلك ان تتحول القاعدة الى استثناء كما يتحول الزكام الى جذام والم المفاصل الى مرض خبيث يجر صاحبه الى القبر، قاعدة مقلوبة تماما تهب القاتل دم القتيل دون ان يخرج من أحشاء القتيل طائر يدعو للثأر كما هي العادة في نواميس القبيلة. لأنك في مجتمع الحافة عليك ان تحتكم لقانون الأضداد الجديد، يجب ان تكون مع وضد في ان واحد، قريب من وبعيد عن في ان معا، هذه العلاقة المختلة هي التي جعلت الذبح على الطريقة الإسلامية وجهاد النكاح والاختطاف والسلب والنهب مهن مثلها مثل سائر المهن، الفارق الوحيد ان هذه المهن إنتاجها فني خالص ومتخصص بأبناء الملة والمعارف والإخوان والأصدقاء فقط

قانون الأضداد هذا غريب في تركيبته لأنه يسمح لك ان ترقص للأصنام مع الراقصين، تركع لها، وتفديها بالروح والدم وفي الوقت ذاته تلعنها وتشتمها وتناصبها العداء، يسمح لك ان تقّبل الاخر وتأخذه بالأحضان وتسأله بإلحاح عن صحته واحواله واولاده، ثم تروي مثالبه ومعاييه ومساوئه قبل ان يتوارى في الظل، تنبش ماضيه وحاضره وتعود

بأصله وفصله إلى الدرك الأسفل قبل ان يبعد عنك خطوتين، هذا النفاق كان مألوفا قبل ان نتحول الى مجتمع الحافة، ولكنه كان اخف وطأة واقل حدة واضعف انتشارا، كان حالة فردية فصار سلوكا جمعيا، وكان مرضا عارضا فصار عاهة مستديمة.

في مجتمع الحافة المحكوم بتعايش الأضداد المرضي ليس لدينا أقلية من القادة وأكثرية من الاتباع مثل سائر الشعوب، لدينا عدد القادة أكثر من عدد الاتباع. القادة يتحولون بسرعة صاروخية الى اصنام بدم ولحم، والاتباع على قلتهم مثل اسماك التونة لا تصلح الا للتعليب.

ومن عجائب القادة عندنا انهم يفهمون في كل شيء... في السياسة والدين والحب والفلك والكهانة والحرب النفسية وحتى في الغدد الصم، ولذلك فان مستشاريهم الذين بلغت اعدادهم عدة الاف ليس لديهم وظيفة غير استخدام الهاتف في مكالمات غرامية ومواعيد مع زبائن مجهولين لعقد صفقات مشبوهة في سوق العملات الذي ترك سائبا لتسهيل عمل المتاجرين بمستقبل العراق وثروة العراق وشرف العراق.

اننا ننفرد بهذه الخاصية من دون باقي الخلق لأسباب يلعب فيها التاريخ دور البطل بلا منازع، وربما تلعب الجغرافية دورا اقل حيادية، فيما يتناوب الخليفة والسلطان والملك والرئيس والكاهن والفقيه والأمام والداعية على ادارة اللعبة الاجتماعية بمهارة وحرفية «السركال»[١]

١- السركال كلمة فارسية معربة، واصلها سركار وتعني الشخص الذي ينوب عن الاقطاعي مالك الأرض see : coin4arab.com

في عصر الاقطاع. ويبدو ان لعبة العسكر والحرامية التي كان الأطفال يلعبونها ويتبادلون فيها الأدوار قد دخلت عالم الكبار ولكن مهمة العسكر فيها انقلبت لدرجة ان الحرامي صار يقبض على العساكر ويودعهم السجن. وكما يستعظم الجزار ذبح اول خروف فانه يستسهل الذبح بعد فترة تدريب قصيرة على طرد الفزع، وربما يستمتع فيما بعد بمشهد الدم وهو يأخذ مساره في الفجوات الصغيرة وينساب بهدوء عبر الحافات، ثم صرنا تماما مثل جزارين محترفين تجاوزوا اختبار وجع الضمير. صار الموت عندنا اقرب واسرع وسيلة للتخلص من المنافسين والمعارضين والمتزلفين أيضا، وصار السياسيون والمواطنون على السواء حاذقون جدا في ابتكار وسائل الذبح المجاني ومتفننون في الوسائل التي تقود سريعا الى المقابر، فإلى جانب السكاكين المخبأة تحت الثياب والأحزمة الناسفة والعبوات على أنواعها وأشكالها واحجامها، هناك غدارات ومجهولين يحترفون الغدر، وهؤلاء يتساوون في الخطر مع الكواتم وأسلحة الدمار الشامل.

هذه صورة مجتمع ما بعد الخراب، مجتمع يشيع الموت ويشجع على الموت ويستأنس بالموت على غير العادة لأنه الشي الوحيد الذي يحقق اعلى ربحية بعد النفط، والحمد للّه الذي وهبنا ثروة إضافية مع النفط فلا نحتاج بعدها لكي نمد أيدينا للأغراب.

سقوط الدفاعات الأخيرة
لمنظومة القيم الاجتماعية في العراق

Breaking Down of the Last Defence Lines
of the Social Values System in Iraq

مقدمة
introduction

السقوط عملية انزلاق حجر مقدس من ألافق الى الافق، انحراف بزاوية ١٨٠ درجة، تبدل يشمل الوجود كله، من اصغر ذرة الى اعظم جبل، ومن اصغر حجر الى اكبر كوكب، وبدون حركة يستحيل الوجود، لان وجودنا اصلا في الحركة وبها، والتحول الذي يحدثه السقوط يمكن ملاحظته بالعين المجردة ويمكن ان يستعصي على الرؤية فيحدث خلسة دون ان يشعر به احد، فحركة الجزيئات والذرات والتبدلات الجينية يستعصي رؤيتها ولكن تحول السوائل الى غازات والغازات الى سوائل وتحول الطفل من رضيع بلا اسنان ولا مخالب الى كائن بأسنان ومخالب كلها تشير الى الحركة.

ولأننا جزء من هذا الكون المحكوم بقوانين الحركة فإننا نتغير ايضا ونتبدل ليس فقط في اشكالنا واثوابنا واهوائنا وانما ايضا في قيمنا وقواعدنا الاخلاقية.

والتغير الناتج عن السقوط حالة لابد منها، صحيح ان التغير احيانا يغرز اظفاره بين الجلد واللحم ويأكل العظيم والوضيع بنفس الطريقة وعلى نفس المنوال وبالوحشية ذاتها، ولكن التغير حالة لازمة للوجود البشري، فمنذ الازل كان الناس يتغيرون ويتبدلون ويتلونون في طباعهم واثوابهم واذواقهم، فما كان بالأمس جميلا مستحسنا صار اليوم قبيحا مستهجنا، وما كان اليوم لذيذا مستساغا يصير غدا غثا رديئا.

التغير هو الذي يسميه الشعراء «الزمن الرديء» لأنه يحدث خرقا في قواعد المألوف، والحق ان التغير سنة من سنن الكون، لا شيء يبقى على حاله حتى الشجر والحجر، بيوتنا واحلامنا وافكارنا واوجاعنا واورامنا كلها تتبدل، ولولا التغير لكنا حتى اللحظة نرتاد الكهوف ونعتاش على الحشائش. وعندما يكون التغير عنيفا، قويا وسريعا مثل اعصار تسونامي او ضخما مدويا مثل تصادم كوكبين عملاقين فانه لن يترك على العظم لحم ولا تحت اللحم عظم فتتبدل نواميس الحياة تبدلا خطيرا لدرجة ان مؤسسات كاملة العدة والعدد بأربابها وأموالها وقوانينها تتحرك بأوامر امرأة كانت حتى امس تقود فصيلا من البغايا، وعليك ان تتخيل شكل القيم ولونها ومدى تأثيرها عندما يقاد المجتمع بأخلاقيات المواخير.

ان الصورة المأساوية لمنظومة القيم وهي تنحرف او تتراجع او تتدنى او تسقط لا تعني ان المجتمع في أزمة انه في الواقع في خطر ولو كان هناك شيء ابعد غورا من الخطر لحذرنا منه ولكن ليس وراء الخطر الا الخراب ويبدو اننا في مرحلة ما بعد الخراب ولعلنا اكثر من أي شيء آخر نستحق الرثاء.

والحق ان خطوط الدفاع عن القيم الاجتماعية التي كنا نحتكم اليها ونحتمي بها قد تساقطت تباعا تحت ضغط المصالح والاهواء والمنافع التي جاء بها القادمون الجدد الذين فتحوا الباب لمن شاكلهم من المنحرفين والسوقة وارباب السوابق وخريجي معاهد السوء الذين أسسوا لمنظومة قيمية جديدة تمجد النفاق الاجتماعي والغش والكذب والخديعة والخيانة والفساد وكل ما من شانه الإساءة لمكارم الاخلاق.

عواصف التغير Changing Gales

هل كان سقوط بغداد إيذانا بسقوط اخر دفاعات منظومة القيم الاجتماعية العراقية؟ سؤال نسعى الإجابة عليه في الصفحات التالية، فبغداد التي تتحول والناس الذين يأكلون فيها بعضهم بعضا سيكون من بينهم من ارهقه السكوت ومن الجمه الخوف ومن اسكره العنف، ومنهم من ركض مع الراكضين وسرق مع السارقين وتاجر مع المتاجرين ونافق مع المنافقين، ولكن لابد ان يبقى منهم - ولو بعدد أصابع اليد - من لا يأكل السحت ولا يعلم اولاده النفاق والرياء والكذب الابيض والاصفر والبنفسجي، ولابد ان يكون بين هؤلاء من يحب جاره ويدافع عنه حتى لو كان من طائفة اخرى او دين آخر او كوكب اخر، ولابد ان يكون هناك - على عوزهم - من يصلون ارحامهم وجيرانهم واصدقاءهم.

ولو ان الناس جميعا سايروا موجة التحول والتبدل لما كان هناك تغير، فالتغير في علمنا هو التوليفة بين الفكرة ونقيضها، والتغير على ذلك هو وليد الأضداد[١]، والاضداد في بلادنا صاروا اكثر من الرمل والحصى

١- صراع الأضداد هو احد اهم الأركان البنيوية للفلسفة الماركسية، وهو مستمد من فلسفة هيغل المثالية التي تقوم على أساس الثالوث trinity الذي يفسر حركة تطور الحياة.. Thesis، antithesis، synthesis الفكرة في صراعها مع النقيض تقود الى حالة جديدة لا تشبه الفكرة الاصلية ولا الفكرة النقيض انها توليفة جديدة (فكرة جديدة هي الأخرى تحمل معها نقيضها، او بذور موتها) وعلى هذا المنوال تستمر الحياة في صراع ابدي بين الفكرة ونقيضها. لقد افترض=

واكثر من القمل والجراد، والسياسيون اكثر من هؤلاء وهؤلاء.

ومع ذلك فان التغير شيء مرغوب فيه رغم ما يتركه من جرح غائر يمتد بعيدا من اقصى حافات الجسد الى اعمق نقطة في عالم الروح.

بيد ان التغير المرغوب فيه ليس التغير المفاجئ الذي احدثه «بريمر» وفريقه من رواد المنافي والمباغي والقبور، فهذا الأخير خطير على الماء والهواء والبشر والحجر والدواب، ونتائجه اكثر خطورة على النسل والحرث، خصوصا اذا صوحب بعصبة من اللصوص التائبين الذين تسللوا الى غرف نومنا وسراويل ابناءنا ومدخرات نساءنا، الذين جاءوا ليسرقوا كل شيء حتى احلامنا وحلي نسائنا ووسائد نومنا يساندهم نخبة من اهلنا وعشيرتنا وابناء عمومتنا، فماذا يكون حالنا وكل خطوة يخطونها بجنازيرهم وجنازير من معهم تجلب لنا العار قبل الخراب.

ترنيمة حزينة، ولكي تقرا هذه الترنيمة قراءة عميقة يتعين عليك ان تكون مستعدا للصرخة بأعلى صوتك، ليس مستهجنا ولا مستنكرا ولا متألما بل حائرا خائفا مترقبا، لان الحوادث والوقائع والشواهد التي يرويها الصغار والكبار لا يمكن ان تكون الا في الاساطير وحكايات الجن،

=هيغل ان الحركة (الفكرة ونقيضها) تعمل بإرادة قوة ميتافيزيقية عليا، ولكن كارل ماركس وجه الانتباه للبحث عن الحركة في داخل الظواهر المادية. ولا ادري ان كنا نقف في منطقة مشبوهة بين هيغل وماركس او نعمل بقوانين انعدام الكتلة والزمن التي يحتمل انها تعمل في كوكب اخر.

See، Marx 1904pp.11-13

ولكنها تحدث هناك على مقربة من تمثال ابو جعفر المنصور الذي نهب مع المنهوبات، وقرب ساحة الفردوس حيث اسقط الغزاة تمثال اخر الخلفاء او اخر الطواغيت او اخر الفرسان، عند ضفتي دجلة المتقابلتين المتجاورتين لآلاف السنين، وفي ماء النهر الذي كان يروي الناس فصار يرتوي منهم.

ما حدث من تبدل لا يشعرنا بالحزن فحسب ولكن بالخزي من ابناء جلدتنا الذين صاروا يأكلون بعضهم كالحيات، فما يدريني من هو هذا «المجاهد» الذي يتنزه على الجسر الحديدي أحد أجمل معالم بغداد وينسفه مازحا، وهو يدري ان الجسر لم يكن يوما سنياً ولا شيعياً ولا حتى كرديا، لا ندري من اخترع هذه الاكذوبة الطائفية الكبيرة وصنف الناس على الوانهم واسمائهم واثوابهم، انها ولاشك لعبة السياسيين والغرباء واولاد المتاريس والمباغي والمنافي، ولو كان الامر غير هذا لكانت دمعة احدهم بحجم جبل حزنا، ولكن انصتوا الى جسر الصرافية المذبوح من الوريد الى الوريد والمصلوب على «الدجلة» كما يقول اهل المدائح، وهو يحكي حكاية موت الضمير، ضمير اولئك الذين ابرموا صفقات وهمية بملايين الدولارات فيها نسب للأحزاب التي باركت لهم هذه الصفقات المريبة(١).

١- يروي لنا الدكتور سعد العبيدي في كتابه عن سياسة التدمير المنظم في عراق ما بعد الاحتلال الأمريكي ٢٠٠٣ حكايات موثقة بالمكان والزمان عن احداث=

اذن لابد للجسر ان يموت مخنوقاً او مشنوقاً او مخطوفاً لكي يقولوا ها نحن نقوم بإعمار العراق. بدولار ونصف اعمار الجسر وبمليون دولار ونصف إعمار جيوب اللصوص، وفي ذلك يقول لسان حال الناس: «لا نريد جسراً مخطوفاً ولا مصلوباً ولا معطوباً، لا نريد خبزاً مسموماً، ونشارة خبز، صدام - على ظلمه - أطهر ألف مرة من بياض خبز اللصوص والقراصنة وباعة الضمير الذين يقطعون لحوم اطفالنا ليطعموا بها اطفالهم الذين حصنوهم بعيدا في المنافي والمباغي والقصور».

هـؤلاء هم الذين علموا الشرطي النظيف ان يتحول الى حارس للمجرمين حتى يتمكنوا من الاجهاز على ضحاياهم، هؤلاء هم الذين علموا اطفال العراق - احلى اطفال الكون واكثرهم نقاء - علموهم كيف يرقصون على جثث المغدورين، وهم الذين علموا اشباه الفقراء على النهب لانهم كانوا اول الناهبين، وهم الذين قتلوا العلماء ظهرا وشردوا الاطباء والمهندسين واصحاب الحرف النبيل، وهم الذين اجهزوا على

=وقعت للشعب العراقي تحت مسميات قدسية وطائفية يقف خلفها سياسيون وأحزاب وتجار دماء وسماسره وزعماء مارسوا كل انواع العهر العقلي والديني والأخلاقي تشبه أفلام الخيال العلمي. وكنا ما نزال نتساءل كيف يمكن ان يستمر هؤلاء في السلطة بعد ان سقطت ورقة التوت وتكشفت عوراتهم. رؤوس بلا أجساد واجساد بلا رؤوس وأعضاء بشرية من كل نوع ملقاة على قاعة الطرقات، في الأنهار وتحت الأشجار والمزابل، حتى صار عدد الجثث اكثر من عدد الأحياء.

شيخوختي وتركوني مرميا في اصقاع الارض، وهم الذين اسسوا للزمن الرديء لا لشيء الا لانهم جياع وجيوبهم ملآى، جياع وقصورهم عامرة، يملكون كل شيء ولا يملكون اي شيء.

ومع ذلك ما زال في بلادنا بقية من اولئك الرجال الذين لا يقتلون على الهوية ولا تزيغ ابصارهم حفنة من الاوراق الشيطانية الخضراء، ولا يتآمرون على الجسر الحديدي لأنه نقطة الوصل بين الرصافة والكرخ، ولديهم حصانة ضد الرياء والحسد والغدر والتهجير والتفجير.

في هذا الزمن الرديء، زمن الغثيان والهذيان والتمحور والتبعثر والتلون والتدني لم يبق امام المثقفين واهل الضمائر الا ان يرفعوا اصواتهم عاليا لا ليغيروا مسيرة التردي والتسربل والتغربل، بل لكي يعرف القادمون ان حفنة من صعاليك التاريخ جاءوا ذات يوم واجهزوا على مروءة العراق ورجولة العراق ومستقبل العراق.

الكذب الازرق[١] Blue Lies

ليس للكذب لون او طعم او هوية، وعندما يحلف الناس اغلظ الايمان بضرورة وبدونها يتعين عليك ان تصدقهم، ثم حين تكتشف انهم يحلفون

١- الكذب كناية عن الخطيئة، وقد يأخذ شكلا ولونا يتناسب مع سريرة الانسان، وقد اسميته ازرق لأني موقن ان بعض الكذابين يمرون بمرحلة ما بعد الرمادية التي تقودنا الى الوهم.

كذبا يصبح للكذب لون ازرق مثل اوردة البغايا، وطعم مر مثل العلقم، وهوية بائسة للانحطاط النفسي والاخلاقي والديني. الناس هنا في العراق يكذبون على بعضهم حتى لم يتركوا مجالا للتمييز بين الفضيلة والرذيلة بين الجمال والقبح بين الخيانة والأمانة وربما بين الليل والنهار.

لماذا يكذبون؟ سؤال ساذج، مثلما تسال لماذا نتنفس او ناكل او نتسافد؟ اسئلة متشابهة والاجابة عنها واحدة، هي لكي نحافظ على بقاءنا احياء. ورغم ان الشرائع والديانات والفلسفات كلها تستهجن الكذب وتعتبره خطيئة، الا اننا من دون بقية الاحياء نمتهن الكذب، وبلا اي حياء يكذب البائع على الزبون، والزوج يكذب على زوجته والموظف يكذب على مديره والمدير يكذب على الدولة والدولة تكذب على الناس، انها فوضى اخلاقية تشبه فوضى المرور في بغداد.

الكذب يمكن تبريره فقط عندما نكون امام خطر يتهدد وجودنا، وفيما عدا ذلك يصبح الكذب علامة من علامات الترف او العوز، المترفون يمتهنون الكذب لكي يحافظوا على شهوة الرفاهية حتى لو كان ذلك يخرق قواعد الاخلاق، ويكذب المعوزون من اجل الحصول على شهوة البقاء حتى لو اغتالوا بذلك قانون الشرف. ليس هناك توازن بين من يكذب على نفسه واهله واصدقاءه وبين من يكذب على الشرطي ومدير المدرسة ورئيس مجلس النواب، الكل في مقياس الاخلاق الابدي كذابون، ولا يمكن منح الكذابون شهادة شرف لانهم اخترعوا لنا قاعدة للشذوذ الاخلاقي يمكن ان تتحول فيما بعد الى قانون ينظم حركة

المجتمع، فيصبح الصادق شاذ وغريب، ومسلوب الارادة، وينزوي بعيدا مثل كلب عجوز.

الاسلام أكثر الاديان والعقائد والفلسفات تجريما للكذب والكذابين، ومع ذلك فإننا الاكثر افراطا في الكذب، بينما كل اولئك الذين لا دين لهم لا يكذبون، الشيوعيون لا يكذبون، والرأسماليون لا يكذبون والبوذيون لا يكذبون ومع اننا نصلي خمس مرات في اليوم وهم لا يصلون، نذهب مئات الكيلومترات مشيا على الاقدام اكراما لذكرى شهداء لهم قدسية خاصة وهم لا يمشون، نصوم ثلاثين يوما في السنة وهم لا يصومون، ونحن نكذب وهم لا يفعلون، نتهرب من الزكاة والصدقات وهم يدفعون بسخاء. نحتال على القانون والنظام وهم لا يفعلون. وباختصار نحن نتمسك بالدين شكلا وهم يمارسونه فعلا. الاسلام اكثر الاديان حرصا على النظافة ومع ذلك فإننا نلقي الازبال على جوانب الطرقات، قرب المساجد، والمدارس والحدائق وعند واجهات منازل الجيران. نستأمن النصراني والمجوسي والبوذي على اموالنا واشياءنا واعراضنا ولا نستأمن المسلم، ليس لان المسلم يكذب فقط بل لان المسلم ابتعد كثيرا عن مثل الاسلام فلم يعد قادرا على التمييز بين الحلال والحرام، بين الغش والشطارة، بين الامانة والخيانة، وبين الادب وسوء الادب.

الاسلام اكثر الاديان تجريما للغيبة، ومع ذلك فاننا نقبل بعضنا بعضا وحالما نلتفت نغمز بعضنا بعضا، ونخرج سكاكيننا الصدئة من تحت جلودنا لنطعن بها بعضنا بعضا. والاسلام اكثر الاديان حرصا على

الحرية، ولكننا اكثر الناس عشقا للعبودية فنحن الذين نصنع الطواغيت ونغني لها ثم لا نلبث ان ننقلب عليها ونرقص على اشلائها.

الكذب علامة من علامات التدهور والتبعثر والتشرذم، علامة لا تليق بشعب كان يقدس الطهر والنقاء والتالف، فهل كنا ضحية ام كنا وما نزال الضحية والجلاد في ان واحد؟ التفسير السوسيوسيكولوجي الوحيد لهذه الظاهرة هو ان الناس في زمن الحصار الذي فرضه العالم المتمدن جدا على العراق والذي ترك ملايين الضحايا معوقين بدنيا ونفسيا، والذي اثقل عليهم، كانوا لا يستطيعون تحقيق اهدافهم بشكل مباشر وطبيعي فكان عليهم ان يبتكروا مختلف «الوان» الكذب لكي يصلوا الى اهدافهم، فالموظف الجائع غالبا ينتظر «دهن زردوم» لكي يقوم بأداء واجبه الذي يتقاضى عليه اجرا بخسا ويحلف انه يقوم بواجبه على اكمل وجه، والمواطن الذي يتغالب مع الاخرين في المؤسسات العامة والشوارع والاسواق مستعد لان يحلف اغلظ الايمان كذبا انه على عجلة من امره وان امه او اباه في المستشفى. كما ان بعضهم على استعداد لان يدفن نصف افراد عائلته وجيرانه واصدقاءه في المقابر احياء، من اجل الحصول على بضعة دولارات، ويحلف اغلظ الايمان انه رجل فقير ومسالم، وانه يشكوا مثل غيره من الزمن الرديء الذي ضاعت فيه القيم النبيلة.. ثم ترى الناس في الباص وعلى الرصيف، وعند زاوية الشارع وفي المقهى وحتى في غرف النوم يتغالبون ويلعنون الزمن الرديء حتى صرنا اكثر شعوب الارض شكاية ولا ندري على وجه الدقة من هو هذا الذي اضاع الاخلاق.

الحق ان الدولة هي المسؤول الاول عن انتشار ظاهرة الكذب، فالدولة (برموزها طبعا) تكذب على المواطن، والمسؤولون، الأعلى يكذب على الادنى فالأدنى، وعلى هؤلاء ان يصدقوا الاكاذيب فليس لديهم حصانة ضد الكذب، خصوصا وان الدولة تكذب برفقة العصا، والاسلاك الشائكة والسجون السرية والسكاكين وكواتم الصوت واسلحة الدمار الشامل. ومنها تعلم المواطن الكذب على نفسه وعلى الاخرين. ثم صار الكذب جزء من قواعد اللعبة الاجتماعية التي يلعب فيها الفرد دور «الشاطر»، والشاطر هو الذي يكسب في النهاية، فاذا علم الناس ان احدهم على صلة بمسؤول كبير توافد الناس اليه ليلا او نهارا كل منهم يحمل معه حاجاته التي يتعذر تحقيقها بطرق شرعية، ويتعين على الوسيط ان لا يعتذر لاحدهم والا تمالئوا عليه واعتبروه خائنا للزاد والملح واتهموه بكل التهم، ولا ينفع ان يحلف لهم اغلظ الايمان انه لا يملك القدرة على المساعدة.

الدرس الذي نتعلمه هو ان الكذب صار ظاهرة، وليس حالة فردية كما كان في الماضي، ظاهرة خطيرة تهدد قواعد المجتمع القيمية، فالذي لا يكذب لم يعد له مكان وعليه ان ينزوي بعيدا عن الانظار او يدخل دورة تدريبية على الكذب. ولان الكذب صار ظاهرة فان الموظف الذي ارتفع دخله سبعين ضعفا مازال يمد يده ليأكل السحت ويحلف انه مثال للنزاهة والشرف، ذلك لان مدراءه الاعلى فالأعلى يفعلون ذلك، فانتشر الفساد من الاسفل الى الاعلى ومن الاعلى الى الاسفل، ولا احد يعرف الى اين ستقود ظاهرة الكذب بالمجتمع.

الجار والمجرور[١] Tractable Neighbour

في السنوات التي اعقبت غزو الكويت فرض العالم المتحضر جدا حصارا خانقا جدا على العراق اثمر عن اعـادة الانسان الى عصر الكهوف، وعندما يجوع الانسان يفقد القدرة على الاحساس بالفضيلة، لان الفضيلة فعل اخلاقي يزدهر مع الرخاء ويزول بزواله. حين يجوع الانسان ويضطر ان يخلع نوافذ الكهف الذي يعيش فيه ليستبدلها بطعام رديء، ثم يضطر ليبيع محتويات الكهف واحدة اثر الاخـرى، فهو لا يكترث ابدا بما يحدث لجاره الجائع ايضا، وعند الضرورة لن يكون امام الجار الا ان يجر جاره لمعركة غير اخلاقية بدافع البقاء.

الحق ان بعض سكان الكهف الذين تخلوا عن الفضيلة تحت وطاة الجوع، باعوا اجسادهم، عندما لم يبق معهم شيء للبيع غيرها، وبعضهم اضطر مكرها لبيع اولاده، لتزدهر تجارة الرقيق وصناعة الجنس وكان ديدنهم « اطعم الجائع ثم حاسبه على الفضيلة » واذا كان الانسان جائعا فانه يعود القهقري الى اخلاق البهائم، والبهائم مهمتها الاولى تحقيق الحاجات التي تديم البقاء، اما الفضيلة فهي حالة ارتقاء لا تتناسب مع مستوى تفكير الجائعين. والناس عموما يتساءلون كما يتساءل

١- الجار والمجرور لم تستخدم من اجل اضفاء هيبة على حروف الجر رغم انها تستحق ان ننحني لها مع سيبويه، ولكن بسبب قدرتها العالية على جر الناس رمزيا لمعركة غير أخلاقية مع الأبواب المجاورة، استخدمت كوسيلة مناورة.

علماء نفس واجتماع، واكاديميون وادباء وفنانون عن التردي الاخلاقي، ويقارنون بين فضائل الامس عندما كان الجار يطعم جاره ويدافع عنه ويحميه، وفضائل الكهوف التي صار الجار يخاف جاره، ويدهسه بشهوة ويشي به الى السلطان لكي يخلوا له الجو فينهش لحمه وعرضه بكل اخلاق البهائم.

لم يتبدل الانسان، فهو هو كما كان يأكل وينام ويفكر ويتفاعل ويتسافد ويتصارع، الذي تبدل هو الظروف، وهي التي جعلتنا ندين بدين البهائم، وكما اننا نخلق ظروفنا وقواعدنا القيمية فإننا ننصاع لها، فاذا تهددت حياتنا عدنا الى قواعد الكهف ولن يوقفنا احد عن ممارسة الشذوذ الاخلاقي والتبعثر القيمي.

لقد افسدنا أمراء النفط وسماسرة النفط وكهنة النفط عندما باعوا مصانعنا في مزادات سماسرة الخردة او تركوها قصدا مكشوفة كي تنهب في وضح النهار. وهم الذين اغلقوا مزارعنا بالقحط والجدب وسوء التدبير لكي لا نأكل من حرث أيدينا وزعموا اننا شعب كسول، جعلونا افواه جائعة، همنا الوحيد كيف نحصل على الغذاء، وتخطيطنا الاستراتيجي يقتصر على ماذا ناكل في يومنا وغدنا. تخيل ان **شعبا لديه نهرين عظيمين يجريان من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ثم يستورد الماء من الكويت!!** شعب لديه ارض خصبة ومراعي واسعة وشمس تشرق على مدار السنة، ويستورد مشتقات الالبان من السعودية!!. ويستورد القمح من استراليا والرز من الهند والطابوق من ايران والالبسة من تركيا والخضار من سوريا والاردن، ولولا هذه الدول لكنا عراة حفاة

نحيا على طريقة «طرزان». ومادام هم الانسان الاول هو كيف يحصل على الغذاء، فليس مستغربا ان تنقلب منظومة القيم وتتحول الى هياكل خاوية لا تحرم حراما ولا تحل حلالا، وليس مستغربا ان يسطو جار على جاره ليسرق منه عذرية ابنته وصديق على صديقه ليسرق منه حلي امه التي اطعمته بيدها.

اللامعيارية[1] Anomie

عندما تموت منظومة القيم بالاغتيال او الانتحار او العبث السيكوباثي، وتحل الفوضى محل القانون والعشيرة بدل الدولة وشذاذ الافاق الذين قضوا نصف حياتهم على الارصفة بدل السياسيين واشباه المتعلمين بدل العلماء والمشردين بدل ذوي النعمة وسماسرة الليل بدل التجار والحكواتية بدل رجال الدين والنصابين بدل الشرفاء وانصاف المواطنين بدل المواطنين وأشباه المثقفين بدل الادباء والمتحذلقين بدل الفنانين، سوف يدب الخراب ليس فقط في جدران الكهف وانما في سقفه ايضا، حيث تتحول الدولة من مؤسسات قائمة على خدمة الناس الى

١- اللامعيارية: مصطلح اطلقه دوكهايم ساخطا على المجتمع الذي يفقد القدرة على تزويد الافراد بالحد الأدنى من الحارس الاخلاقي، انه أشبه بعملية تفتيت لأواصر العلاقة بين الفرد والمجتمع. انه لم يستخدم اللامعيارية كمرادف لفقدان المعايير، استخدمها بالضبط كتعبير عن «التشويش» الذي يحدث للناس عندما تضيع المقاييس الأخلاقية الإنسانية وتحل محلها اخلاق البهائم. Durkheim (1897)

مؤسسات للتعفن والتمترس الطائفي والعرقي والديني. ومن راعي امين على مصالح الناس الى مجموعات من اللصوص وانصاف اللصوص واشباه اللصوص، وتستحيل حياة الانسان الى سلعة رخيصة جدا، ارخص من التراب واقل ثمنا من الخراطيش التي يقتلون بها.

وحين يصبح الامن الشخصي عرضة للابتزاز، والانتهاك والاستلاب، وتأخذ العصابات المنظمة دور الشرطة والمليشيات دور الجيش واهل العمائم واللحى دور المخابرات والمراهقين السياسيين دور النزاهة ويتخندق الناس خلف جماعات دينية وسياسية وعنصرية تصبح الدولة هيكل هلامي لا يستطيع ان « يهش ولا ينش « وعندها يمكن القول ان اللامعيارية في المجتمع قد وصلت حدودها القصوى.

واللامعيارية ليست فقط حالة انفلات اخلاقي وقيمي وعلائقي، انها تشمل النظام الكلي للمجتمع بما في ذلك علاقات التفاعل القائمة على التكافؤ والتوازن والتماثل، وفي ذلك يتحول السلوك البشري من سلوك قائم على قواعد منظمة الى سلوك عائم، مشوب بالحذر، والقلق والخوف. سلوك تفرضه الضرورة وتحكمه الغريزة وتدفعه الحاجة.

واللامعيارية شكل من اشكال التفكك الاجتماعي الذي يؤدي الى العمل بشريعة الكهف حيث لا حكومة الا في الطوارئ ولا شعب الا في البحث عن شركاء للسطو على الكهف المجاور واستلاب الثروة كما يحدث في العراق اليوم. حيث الثروة التي بلغت مئات المليارات من الدولارات ثم ضاعت بطرائق غامضة، ستظل تتدفق بنفس الطريقة وتتبدد بنفس الطريقة ليس لان حراس الثروة هم لصوصها فقط، بل لان الثروة تحتاج قوة

تحميها والا صارت نهبا منهوبا لكل من يملك مهارات اللصوص وحرفية السماسرة ومهنية المحتالين. ان احدا لا يستطيع ان يحمي القطيع مالم يجد كلاب حراسة. كلاب حراسة ليست على شاكلة كلاب بافلوف الجائعة التي لديها استعداد لعقد صفقة سرية مع الوحوش ضد القطيع وضد الراعي معا، كلاب يكون ولاؤها للقطيع والراعي وليس للوحوش.

اما الرعاة الذين دخلوا «عالم التقفيص» - وهو مصطلح جديد في الثقافة العراقية - فرضته ظروف المجتمع اللامعياري، فانهم اما ان يكونوا من باعة الوهم المتجولين او سماسرة الخردة او رواد الليل، الذين لا ينشدون الا وضع القطيع عند جزارين او ذئاب بأنياب ومخالب او يعملون لحساب شركات عابرة للقارات تحميهم بالجواسيس والاقمار الصناعية والميديا.

لم يبق شيء من المعايير لم ينتهك او يتحول بقدرة قادر الى ضرب من الوهم الذي صار يباع في اسواق الجملة والمفرد عند مفترقات الطرق وابواب السجون وداخل مواخير السياسة.

دين الكهف ودين الغابة

The Cave Religion and the Jungle Religion

الدين كما يقول شينوي ١٩٦٥، هو « علاقة الانسان بالسماء» ولك ان تختار نوع هذه العلاقة وشكلها وحجمها وطولها وعرضها وارتفاعها وعمقها ورموزها وطقوسها، ولكنها تبقى محكومة بثقافة المجتمع، فالذي ولد في كنيسة او في ملهى ليلي او حتى في ماخور لبيع البغايا لا يستطيع

ان يتخيل ان هناك رمزا دينيا اكثر منه عمقا في علاقته بالسماء، والامر ينطبق على من يولد في مسجد او حسينية او معبد بوذي او سنكوك يهودي او مغارة ثلجية او غابة افريقية، كل يرى انه صاحب الحظ الاوفر في علاقته بالسماء، حتى لو كان الرمز الوسيط، بقرة او طائر او حائط او شجرة او قبر او حجارة ملقاة على قارعة الطريق او طوطم لسلف مختل عقليا او قديس منحرف جنسيا، ولكن لم نجد في الكتب الدينية «عدا العهد القديم» من يشيع الكراهية والعدوانية ويحرض على القتل والتكفير والتدمير للأديان الاخرى والاجناس الاخرى. والواقع ان الدين مثل السياسة ومثل الاقتصاد يمكن ان يستثمر للتعاون والتكامل والتلاقح ويمكن ان يستغل للتجييش والتنفير والتكفير، ولكل طرف مصالح تجري مجرى الدم.

لقد كان الدين على مر العصور ممر دامي لعلاقات ذات بعد واحد، علاقات مسمومة تصنف الاخرين وفق معيارها الاوحد وتضع جماعة «النحن» فوق جماعة ال «هم» او «الاخرين» وتضفي على نفسها كل الفضائل فيما تلصق كل الرذائل بالآخرين وهي تعبير دقيق للمفهوم القرآني:

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ البقرة: ٣٦

ولقد كانت الكنيسة الى وقت قريب تعتقد ان كل مجتمع لا يتبع الكنيسة هو مجموعة من اللقطاء.

لم نجد غير الضعفاء من اتباع الرسل من يقول بان الاديان ذات

طبيعة واحدة لأنها من مصدر واحد، ولم نجد من يبحث عن المشتركات بين الاديان غير الضعفاء ممن لا يجيدون استخدام السكاكين والعبوات وكواتم الصوت والصواريخ عابرة القارات. لقرون كان الدين يستخدم كوسيلة لذبح الجنس البشري تحت مسميات استفزازية مثل «الحرب المقدسة» و«القانون الالهي» و«رغبة السماء»، وكانت شخصيات مختلة عقليا تقود حروبا مقدسة تتوارثها اجيال لقرون عديدة، ولم تثمر هذه الحروب غير ملايين الضحايا التي تذهب ولا تعود.. كل ذلك يحدث من اجل حفنة من اصحاب رأس المال الذين يدفعون غيرهم لعالم سحيق فيما يزدادون شهوة للسلطة والمال والدم.

ان اصل الدين، الارتقاء بالإنسان من سجنه الحيواني الى فضاء الحرية والعقل والنور، ولكن اصحاب المصالح والاهواء والمنافع، كانوا دائما الاسبق في افساد العلاقة بين الارض والسماء، فلكي يحيا هؤلاء بالطريقة التي يريدون كان على الضعفاء من اتباع الرسل ان يذهبوا الى المذبح بإرادتهم او رغما عنهم، وسواء ذهبوا بإرادتهم او راغمين فانهم سيذبحون على اية حال، واذا كانوا سيذبحون فانهم لن يكترثوا اذا منحوا حرية اختيار الزمان والمكان، والذبيح بكل الاحوال لا يهتم كثيرا ان كان سيذبح في الصباح او المساء، تحت سياط الجلاد ام بالسم، في معركة مقدسة ام في حفلة راقصة، في سهل ام في وادي.

واذا كان دم الضحايا يجري عبر القرون ليتمتع اصحاب راس المال، والزعماء المعتوهين، وقراصنة التاريخ، فان حكاية الموت المجاني التي طالت الضعفاء من اتباع الرسل لم تنته بعد، ومازال اصحاب النفوذ

والقوة يقودون الفقراء بالتجويع والترهيب والتسويف نحو هلاكهم.

لقد اختفت الغابة ولكن اصحاب الغابة مازالوا يستخدمون حطب الغابة ومغاراتها السرية وقوانينها القديمة للسيطرة على الارض وما فوقها، وكلما ازداد البعد عن الغابة بالتحضر او التمدن او التقدم كلما صار اصحاب الغابة بأنيابهم ومخالبهم اقوى واعنف واوسع في الاجهاز على الضعفاء.

ان اسوا ما اخترعه عقل الامم المتحضرة جدا هو « البراغماتية» التي تعني الطريقة العملية لتحقيق الاهداف بغض النظر عما اذا كانت الطريقة المستخدمة اخلاقية او منافية للأخلاق، شريفة ام غير شريفة، نزيهة ام فاسدة، المهم فيها الوصول لتحقيق الهدف، وقد افرزت هذه المدرسة المنحطة الفلكي وعالم الرياضيات والباحث في علم الاجتماع الفرنسي من اصل بلجيكي ادولف كوتليه ١٨٧٤-١٧٩٦ الذي اسس أسوأ قانون للعلاقات الانسانية على طول التاريخ وعرضه، عندما قال: «**اذا اردت ان تقتل عدوك فاظهر له الصداقة واذا عزمت على قتله فعانقه، فاذا قتلته اذرف عليه الدموع**».

قاعدة خبيثة واخبث ما فيها ان الجلاد لا يذرف الدموع على الضحية، بل يذرف الدموع بدواعي النشوة، نشوة الانتصار على الصديق الذي ذهب حتف انفه. وهذه القاعدة الماجنة للتمدن هي التي اجهزت على العراق وسوريا وليبيا ومصر واليمن، وهي في طريقها للإجهاز على ما تبقى من دول مدن الطوائف العربية

الواقع اننا لسنا على درجة من الغباء لكي لا نفهم قواعد الصداقة

البراغماتية التي اظهرتها لنا الامم المتحضرة، ولكن كان فهمنا لها على قدر من السذاجة، سذاجة قادتنا الى تصديق هذا الصديق الكريم الذي قدم لنا الطعام والشراب والتكنولوجيا والنصيحة مجانا وفي نفس الوقت كان يغرز سكاكينه الصدئة في ظهورنا ويذرف علينا الدموع.

معاهدات صداقة، وامن وتعاون استراتيجي وبضمنها ان تكون كلاب الصديق الاستراتيجي وحدها مسؤولة عن حراستنا وحراسة حضيرة قطعاننا وبحيرة اسماكنا وانهارنا واشجارنا وحقول نفطنا ورغيف خبزنا وكتب اطفالنا وحلي نسائنا، فصار علينا ان نتحول بالتدريج الى ما يشبه كلاب بافلوف التي تأكل على وقع الاجراس، دون ان يكون لها حول او قوة.

المحزن ليس ان نفهم او نحصل على مصادر القوة لحماية انفسنا وذرارينا، المحزن هو ان دول الانياب والمخالب الصديقة جدا قد اعطيناها الفرصة الكافية لقراءتنا بعناية كافية لكي يتسنى لها غزونا من الداخل وتوجيه ابنائنا نحونا كي يهشموا بيوتنا وشوارعنا ومساجدنا واحلامنا.

لقد كان اتجاه العربة خلف الحصان بالضبط، والحصان يعرف اين الماء، والعربة كانت اكبر حجما من حصان طروادة واشد ضراوة واكثر تنظيما، و» المجاهدين « الذين يقبعون خلف الحصان كانوا يعرفون بالضبط لماذا وكيف ومتى يستطيعون بخمسين لحية قذرة ان يهزموا خمسين الفا من الجنود النظاميين الذين تكاسلوا في اداء الواجب، لان قادتهم كانوا يتقاسمون معهم قوت يومهم. هؤلاء المجاهدون الذين نحروا الجسر الحديدي ذات مرة، وتركوا نصف ازقة بغداد تفوح منها

رائحة الكراهية، ونصفها الاخر يقف منتظرا «جـودو» على طريقة صموئيل بيكيت، هم الذين جاءوا بدين براغماتي جديد على الطريقة الامريكية. انهم ولا شك اكثر المرضى السيكوباثيين خبالا، فالغالبية العظمى منهم ممن لا وطن لهم ولا هوية ولا شهادة ميلاد، هكذا ولدوا مرة واحدة في ظلام الكهوف واندفعوا على طريقة الروبوتات نحو هدف كان قد تحدد سلفا بالخرائط والمجسات والاقمار الصناعية نحو اهلهم لكي يقول قائلهم «ها أنذا اعود بعد ان كنت طريدا منبوذا في بيتي». وهؤلاء يمتلكون الدافع لكي يعودوا للحياة من خلال الموت، فهم بمقاييس الدين والثقافة والمجتمع كانوا موتى، فاذا ماتوا كتبوا شهداء « بزعمهم « وان عاشوا فانهم يطلبون الحياة، حياة القادة والزعماء والامراء وليست حياة المشردين والمنبوذين والمعاقين نفسيا.

السؤال هو لماذا كان سهلا على ابو قتادة وابوحفص وابوعمير والقعقاع التوجه جنوبا نحو بلاد المسلمين بدل ان يتجهوا شمالا حيث الارض التي فيها جون وكوهين وشاؤول الذين لا دين لهم، والجواب ان نظمنا الاستبدادية التسلطية القهرية كانت قد خلقت هوة عميقة بين الدولة والمجتمع هوة لم تترك مجالا للمواطن ان يستشعر وطنيته او يعبر عنها عمليا. نظمنا لا دين لها، وفي احسن الاحوال فان وعاظ السلاطين الذين يستخدمون المساجد والحسينيات هم من نافذي الصلاحية الذين فقدوا المصداقية لانهم دجالون ومزايدون من طراز فريد، هذا فيما عدا ان اغلبهم مجندون لصالح راس المال الذي يوفر لهم الحصول على شهوة المال والسلطة. والى جانب ذلك مازالت القوانين التي تحدد

العلاقة بين الناس والدولة تعمل منذ اكثر من قرن من حكومات «الثوار» المتعاقبة بقوانين الدولة العثمانية ومؤامرات الجيش الانكشاري.

وفيما تستغل الدول المتحضرة جدا والصديقة جدا العلاقة المأزومة بين الدولة والمجتمع، وتستقطب الشباب الساخط العابث المتمرد، بطريقة دينية ميتافيزيقية عنيفة عن طريق دعاة محترفون قادرون على تحويل الدين الى احزمة ناسفة، نكون نحن في قيلولة ابدية بعد ان اصابنا الاعياء من النهب والسلب والتآمر ضد بعضنا البعض

ونتيجة هذه الاسباب مجتمعة، تبدلت منظومة القيم الاجتماعية تبدلا خطيرا، حتى صار الوضيع اكثر احتراما من الحليم، والملتحي حتى لو كان جزارا اهم من المعلم، والسماسرة اكثر اهمية من التجار ورواد الليل افضل من رواد المساجد والمتاجرين بالوطنية احسن مكانة من المواطنين والبغايا اشرف من بنات الخدور. ثم تردى الوضع العام للمجتمع، حتى صار اللص شرطيا والمجرم قاضيا والقاضي سائسا لخيل السلطان والسلطان عبدا لشهواته ونسائه.

عندما يمرض المجتمع

When the society get ill

حريق في زنزانة

Fire in prison cell

المرض الاجتماعي طلق ناري في مؤخرة الرأس، حريق في زنزانة، او غزو لقطيع من الوحوش على قرية نائمة على ضفاف الفجر. حالة توصل الناس أفرادا وجماعات الى موت مؤجل، وهو في أضيق معنى نتيجة من نتائج الخراب الذي يعقب زلزال من عشر درجات على مقياس ريختر المؤلف من تسع درجات. المرض الاجتماعي مثل لسعة عنكبوت سام بمئة عين ومئة خرطوم ومئة لسان، ومثل حمى النفاق، وحشرجة كذاب يوشك ان يموت بالطاعون، ومثل يد لص محترف تجاوز عقدة الخوف من الله.

فهل يمرض المجتمع، بمعنى من هذه المعاني، كأن يصاب بالحمى، او السرطان او تصلب الشرايين، ثم يموت ويدفن في مقبرة كما يحصل للفرد. الكل يعتقد ان المجتمعات لا تموت، قد تضعف وتهزل وتصاب بالحمى الهستيرية ويجن جنونها ويلحق بها الخراب، ولكن لا احد يعرف ان مجتمعا دخل مصحة عقلية، او أجريت له عملية جراحية لإصلاح شرايين القلب، او استبدلت كليتيه، كما لا يعرف احد شعبا يشكو من انسداد أذنيه او احتقان جيوبه الانفية الا من باب السخرية او المجاز.

اذا مرض مجتمع من المجتمعات فانه ينكفئ على نفسه مثل قدر أكلته النيران، او مثل متسول على الأبواب لا يستطيع ان يميز بين من يزدريه ومن يتصدق عليه، فاذا بدت عليه علامات الاحتضار فان احدا لا يعلن موته على الملأ، كما يحدث للأفراد، ولن تحقن مكبرات الصوت بأنباء موته الا بعد التأكد من ان الموت قد أستمكن منه، فاذا حدث ذلك

تمالئ عليه الكهنة والاحبار والكرادلة والفقهاء كل على طريقته ليطعنوه طعنات متتالية وهو يحتضر، ثم يخرج ورثته من تحت الأرض ومن فوق الأرض لكي يتقاسموا جثته قبل ان تبرد، وتصبح ممتلكاته ملكية مشاعة لشذاذ الآفاق والافاقين والقراصنة ولكل الذين جاؤوا من غير اصلاب ولا أرحام.

عندما يمرض المجتمع، تتنازعه فئتان واحدة تأكل منه اللحم والعظم وتسعى للإبقاء عليه مريضا كسيحا لا يقوى على شيء، والأخرى تحفر له قبرا جميلا تجمع فيه كل ديدان القبور لكي تدفعه الى العالم السفلي، وكلاهما يستريح عند راسه الفاسد بفؤوسهم ومعاولهم وعبواتهم الناسفة، ايمانا منهم بان الإبقاء على الراس فاسدا من شانه الإبقاء على الجسد كله فاسدا، وعلى طريقة جون ديوي : ٤٣١٩٦٣ الذي يقول «ان قتل الشرير، او عزله خلف الجدران، يهيئ الفرصة لنسيانه، وفي نفس الوقت يهيئ الفرصة لنسيان الدور الذي لعبناه في خلق هذا الشرير»

فالمجتمع المريض مثل الفرد المريض يصبح شريرا رغم انفه، حتى مع يقين الذين يحيطون به انهم سبب نقل الأمراض اليه، انها فرصة لاقتلاعه من الجذور لإدخاله عالم النسيان الابدي، معادلة همجية تخلو من كل القواعد الأخلاقية، ولكن رجال السياسة والاقتصاد والدين لا يكترثون للمعايير الأخلاقية، لأن ثقافتهم اصلا تقوم على مبدأ التفاهة المنظمة التي تخضع كليا للشهوة وحدها.

المجتمع المريض ليس اكثر من اعلان يوضع على واجهة، وما وراء الواجهة لا احد يدري ما يجري على وجه التحديد، هناك دائما أيدي

خفية وقوى تعمل في الظلام لإخفاء معالم المرض وتعمل في الوقت ذاته على تسريع وتعميق اورام المجتمع وتقطيع اوصاله بما يشبه الإبادة التي حصلت لسكان أمريكا الاصليون وسكان أستراليا الاصليون، وكمبوديا وفيتنام وأفغانستان والشيشان، وما يحدث الان في سوريا والعراق وليبيا واليمن، المجتمع المريض مجرد عنوان لكذبة كبيرة اكتشفها الفيلسوف الصيني «صن تسو» قبل أربعة الاف سنة واعاد لوك وهيوم وروسو اكتشافها قبل أربعة قرون. هيوم Hume ١٩٧٩ :١٣٠ قال: «**ان الشعب لا يمرض الا اذا وضع بين خيارين؛ التجارة والحرب، واي خيار منهما يجعله ضعيفا...**» فهو يعتمد على جيرانه كما يعتمد على الاحداث، ويظل كيانه غير مستقر وقصير، فإما ان يخضع غيره او يخضعه غيره فينتهي كيانه، ولا يستطيع ان يبقى حرا الا اذا كان صغيرا بدرجة كافية او كبيرا بدرجة كافية»

ولو عاش هيوم في هذه البلاد لأضاف الخيانة لخياراته، فمع الخيانة التي تسري مسرى السم في البدن، لا يستطيع البلد مهما كان صغيرا او كبيرا ان يستعيد عافيته لأنه سيكون مثل زنزانة تحاصرها النيران.

أفيون الثقافة Culture ‘s opium

محنة بعض الشعوب، انها تحقن بالأفيون مع الحليب، فيدب الخدر في أعضاءها شيئا فشيئا، فتصبح عاجزة، مستكينة، شبه مشلولة، فتتعايش مع الفقر والمرض والجوع، وسوء الإدارة، وسوء توزيع الثروة والسلطة، وترضى بذلك على انه قدرها المقدور، ثم ينهشها الجهل والجوع والمرض

نهشا وينخر عظامها نخرا، وحينها تطلق انينا مخنوقا مثل بقرة مذبوحة لتوها.

الأفيون مكون من مكونات الثقافة، هكذا يبدأ... هذا عيب وهذا حرام، هذا يجوز وهذا لا يجوز هذا شرعي وهذا غير شرعي، وعندما يتكلم الكبار عليك ان تخرس والا سيقطع لسانك، واذا اردت ان تشتري حذاء او قميصا فليس من حقك اختيار لونه او نوعه او شكله ولا حتى قياسه، هم يفعلون ذلك بالنيابة عنك. عليك ان تقبل وتذعن واذا أعلنت العصيان ضربوك واذا رفضت صادروا ألعابك ومصروفك واعلنوا عليك الحرب بكل أشكالها، وخاصة حرب النعوت، فتكون انت.... غبي، متخلف، فاشل، مجرم، فاسد، وقد تزداد حدة فتصبح كلب، حيوان، مطي، زمال، كديش، لو كان فيك خير لكنت مثل فلان ولو كان فيك خير لكنت مثل ابن فلان ولو كان فيك خير لكنت وكنت. كما يتعين عليك ان لا تتحدث بالسياسة ولا تذكر السلطان بسوء ولو فعلت عليك ان تتذكر ان للحيطان أسنان وليس اذان. هذا بالنسبة للأولاد الذكور اما الإناث فيخرجن في عربات مصفحة ويعدن في عربات مصفحة بصحبة حارس له الف عين، ومع كل التفاتة او حركة لا إرادية ينشر الحارس الأمين عيونه لاستطلاع المكان حيث قد تكون الحركة ايماءة والالتفاتة موعد غرامي، والنظرة الى الجانب دعوة للحصول على اعجاب والتعثر رسالة تلفونية بشفرة سرية لعاشق ينتظر على بعد ثلاثين مترا، وبين حين واخر ينظر الحارس الأمين اليها بتجهم والويل لها ان كانت تبتسم، فالابتسامة تعني إشارة وموعد ولقاء، فاذا عادوا الى البيت تبدا محاكمتها على

طريقة محاكم التفتيش، فاذا احتجت على سوء معاملة الحارس، فإنها تضرب لحد الاغماء ويسحب منها التلفون وتحبس في زنزانة حتى تسقط اسنانها او يأتيها منقذ على هيئة عريس ممتلئ الجيوب، وبشرط ان لا يكون غربيا ولا شرقيا.

هذا النوع من الحرب على الدماغ يحول الطفل الذكي الى كديش، والطفل المتوسط الذكاء الى ما هو ادنى من الكديش، وتدفع بعض الأطفال الى الى العناد والتطرف والانحراف وربما الانتحار على الطريقة اليابانية، ويحول الفتاة الى أفعى ساحرة ماكرة تنتهز أي فرصة لإقامة علاقات عاطفية سرية مع رجال وهميين او حقيقيين بدافع غريزي يصعب كبحه، كما يصعب على الرقابة كشفه. ولو استبدلت هذه النعوت، بان يقال لمن يفشل لقد فعلت ما يتوجب عليك ويمكن ان تتجاوز ذلك وتنجح، او تقول لمن ينجح أحسنت والله ورفعت راسي او تعلمهم من غير اكراه. فان ذلك سيمنحهم الثقة في انفسهم وبمن حولهم، وسيكون ذلك بمثابة مصل علاجي ضد مفعول افيون الثقافة، وربما لا نحتاج بعدها الى حراس مدججين.

بعض الناس لا يكترث ان نجح الأولاد او فشلوا، وبعضهم لا يقتنع حتى مع النجاح ويبدأ بتقريعهم ومقارنتهم باخرين تفوقوا في مجال معين، وهو لا يدري ان بعض هؤلاء المتفوقين في مجال معين قد يكونوا فاشلين في مجال اخر والعكس يحدث أيضا.

أفيون الثقافة اخطر بكثير من الأفيون المخدر، فالأخير يمكن تداركه والخلاص منه بجلسة علاج او جلستين ولكن أفيون الثقافة يرافق الناس

الى قيام الساعة. أفيون الثقافة يضع الاصفاد في اقدام الرجال والنساء ويسحبهم الى المذبح لكي يكونوا قرابين لآلهة الاعراف والتقاليد المقدسة التي لا يملك احد حق الاعتراض عليها، حتى ينفق احدنا سبعين سنة مكبلا بالعيب والحلال والحرام وهو خانع مثل خروف العيد، الى ان يعلن امام المسجد موته عبر مكبرات الصوت.

وعلى افتراض ان الموت لا يطال الشعوب لأنها تحتمي بجهاز مناعة مزود باليات مقاومة للصدأ والعطب، ولكن الموت أحيانا ارحم بكثير من الحياة، فالشعوب التي لا تملك القدرة على ايقاف مروجي الفوضى وحراس النفاق واللصوص الذين يتسللون في وضح النهار الى غرف النوم، ويسرقون حلي الأطفال ومدخرات النساء ورجولة الرجال، هي شعوب اقرب للموت منها للحياة، واذا كانت حية في بدنها فإنها ميتة في روحها... وعندما تفقد الشعوب الإحساس بالكرامة، تصبح في عداد الأموات وان كانت تأكل وتشرب.

المرض الذي يطول المجتمع ويهزمه، يبدأ باستحواذ فئة قليلة من شذاذ الآفاق على السلطة والثروة، وبها ومن خلالها يتسرب العفن الى باقي الجسد الاجتماعي، ثم مهما فعلت ومهما حاولت ان توقف العفن فلن تجدي المحاولات نفعا لأنه يكون قد تسلل عميقا في أنسجة البناء.

أمراض المجتمع كثيرة، بعضها خطير للغاية، وبعضها اقل خطورة، بعضها مثل عضة كلب مسعور او ضربة سيف مسموم وبعضها مثل لسعة نحلة او خدش شوكة، منها ما هو عارض، مؤقت، سريع الزوال ومنها مستعصي، طويل الأمد وغائر مثل جرح مفتوح. المجتمعات كلها تتعرض

لأمراض أخطرها الجهل الذي يقود لسوء التقدير وسوء التدبير، وقد يؤدي الى الجريمة بأنواعها وأشكالها ومسمياتها، واوسخها الجريمة المنظمة التي يحركها عن بعد أصحاب السلطة والثروة الذين لا يتورعون عن اكل لحوم الناس وجلودهم معا، كما يؤدي الجهل الى استلاب غير معلن لإنسانية الانسان، فيصبح الانسان غولا من الغيلان او هدفا سهلا لمصائد العابثين، ليعاد تدويره من التراب الذي خلق منه الى التراب الذي يدفن فيه، جرائم عبثية يقودها افراد او جماعات مصابين بلوثة عقلية وجوع قديم يترافق مع إحساس عميق بفقر الموقع. ومن اعتى مخاطر الجهل التجهيل المقصود الذي يصبح بمقتضاه تلميذ المدرسة ومعلم المدرسة غير قادرين على كتابة اسمائهم، ثم يتحول بعض هؤلاء الى فقهاء يفتون الناس في الحلال والحرام وبعضهم مهندسين يبنون لنا جسورا تسقط بعد انشائها بعشرين دقيقة، ومنهم يخرج أطباء يساومون الناس على موتهم، وتجار يضحكون على زبائنهم ببضائع فاسدة، وضباط يسرقون اللقمة من أفواه جنودهم ثم يهربون من المعركة مثل ارانب مذعورة.

المجتمع الجثة The dead body society

قديما قيل لحكيم ما الجرح الذي لا يندمل، قال: حاجة الكريم الى اللئيم ثم يرده بغير قضائها، قيل فما الذي هو اشد منه، قال: وقوف الشريف على باب الدنيء ثم لا يؤذن له.

الاب شيهي

عدد اللئام يتزايد بدرجة توحي ان المجتمع تحول بفعل فاعل الى عالم

موبوء بوباء اكبر من اللؤم واكبر من الدناءة، عالم تسيل من جوانبه البغضاء والكراهية والغش والخيانة، ومن يرفع صوته في هذا العالم المتناشز، المضطرب والمنخور من الداخل، يذهب ولا يرجع، ولن يعثر له على جثة مثل باقي الخلق، واذا عثر على جثته بضربة حظ فان على ذويه ان يدفعوا ثمنا باهظا لاسترداد عظامه، فاذا وجد شريف لا يرضى ان يكون جزء من فريق اللاعبين في عالم الجريمة المنظمة التي دخلت كل مؤسسات المجتمع يصبح عليه ان يحصل على إجازة للبقاء على قيد الحياة، او يحجز له مكانا في مقبرة.

لقد استطاعوا ان يحولوا المجتمع من بناء شامخ بقيم نبيلة الى جثة باردة ماتت من سنين، وهم يعلمون ان الجثث لا تملك حق النقض او الاعتراض على نوع القبور التي تلقى فيها، وبسبب معرفتهم بان الجثث لا تملك حرارة الأحياء تفننوا في تنويع القبور، حتى لم يعد احد يحلم بحفرة في باطن الأرض، صارت الحفر في بطون الكلاب الجائعة، وفي قعر المزابل وعلى الأرصفة.

ومهما يكن فان تجريد المجتمع من قيمه وتحويله الى كيان مشوه، يشبه صورة غريغوري سامبسا في مسخ كافكا، قد ادى الى تحول الناس الى أشباح تمشي وسط حطام الخرائب، وصار الناس يساومون القدر على مواعيد يشهد فيها احدهم تخرج ابنته من الجامعة او عودة ابنه من منفاه قبل ان يلبسوا اكفانهم، ويدفعوا الى حفرة في بطن كلب او جحر في قعر مزبلة.

المشكلة ان الناس لم يعد لديهم طموح لحياة اكثر امنا واكثر حرية واكثر عدالة، لان اللاعبين الأساسيين في دورة الحياة الماجنة التي رسم حدودها سياسيون جاؤوا من تحت الأرض، من المواخير ومن النسيان ومن العالم السفلي، لا يحترمون امال الناس ولا اوجاعهم ولا أحلامهم لانهم دفنوا الفضيلة في صندوق بأقفال حديدية، وتحولوا من بشر بدم ولحم الى بشر بوجوه من حديد وضمائر من حديد ومخالب من حديد.

الخراب الذي حل بالمجتمع وافقده عذريته الأولى، لم يكن بسبب الجهل ولا التجهيل وحده، سببه انقلاب مسلح احدثه الغزاة منذ ان اطلقوا يد اللصوص والعابثين وتجار الفاحشة على مفاتن المجتمع وموارد المجتمع وفضائل المجتمع. مع اول يد امتدت نحو خزائن المتحف الوطني والبنك الوطني والمكتبة الوطنية، ومع اول يد امتدت على أعمدة التلغراف، وحاضنات الأطفال، وقبعات الجنود المنكسرين مع هذه الأيدي الطويلة حقن المجتمع بقيمه وتقاليده وفضائله رغما عنه بجرثومة تشبه في تأثيرها جرثومة التيفوئيد، حقن بجرثومة العنف، والطائفية والعرقية والمناطقية ليتحول تدريجيا من نسيج متماسك الى كيان مهلهل، مستهلك مأزوم ومهزوم في ان معا.

لقد استمكنت الأمراض منه حتى بات عاجزا، مشلولا، مخذولا، وصار الدنيء سيدا والشريف دنيئا، فانقلبت الدنيا انقلابا، وصار اهله أشبه بفصيل من البغايا تقوده عاهر محترفة.

دورة النفاق Hypocrisy circle

من النادر ان ينظر للنفاق على انه تغطية إرادة الشر تغطية قصدية باحتجاجات صارخة على الفضيلة.

جون ديوي

نمذجة أمراض المجتمع وحصرها بالشواهد والأدلة ليست الطريقة المثلى لإحضار الشهود الى محكمة التاريخ، لان شهادات الشهود ذاتها يمكن تزييفها ويمكن اخفاؤها ويمكن شراؤها بمئة دولار فقط، ولكن تسويقها على طريقة الكوكا كولا هي احدى افضل الوسائل الاقتصادية نجاحا في إغراق السوق ببضائع فاسدة وعلاقات فاسدة وذمم فاسدة. بهذه الطريقة تبدا دورة النفاق اكبر واخطر أمراض المجتمع. النفاق سلعة رخيصة يمكن العثور عليها لدى السماسرة المتجحفلين عند بوابات المرور والجنسية والجوازات والمستشفيات والتقاعد العامة والمحاكم والمدارس ولدى صغار الموظفين الذين يسرقون زمن الناس باللهو والمطل والتمارض، وكبار الموظفين الذين ينفقون نصف ساعات العمل في تهيئة لفائف التبغ الرخيصة واقداح الشاي والمكالمات الهاتفية والنصف الاخر من ساعات العمل في دورات المياه والتطهر من النجاسات ويساومون الناس على عمل يتقاضون عليه اجرا مجزيا، هؤلاء لا يمكن وضعهم في قناني فارغة لانهم كالأشباح الذين لا وجه لهم ولا ظهر. النفاق مثل الطاعون لا يمكن تحييده لأنه ينتقل بسرعة خارقة من القاع الى القمة، من الصغير الى الكبير ومن الكبير الى الأكبر، دورة ماجنة خلقتها ظروف

مجتمع تغير فجأة من النقيض الى النقيض، بدون رقيب ولا حسيب، مجتمع فرضت عليه اخلاقيات المواخير وقواعد العهر العقلي ونواميس الرذيلة تحت أغطية لاهوتية وشعارات كهنوتية وممارسات ميتافيزيقية. وفي مثل هذه الأجواء حيث ابعد العقلاء والشرفاء والحكماء من الساحة، صار المنافق عملة نادرة يتسابق أصحاب النفوذ عليها لتزيين المشين من أعمالهم وتجميل المرذول منها بمبررات شرعية صدقوها وشرعنوها وصادقوا عليها، فالمسؤول صاحب المعالي وصاحب السمو ودولة الرئيس الذي يتقاضى راتبا شهريا يزيد على راتب أربعة سلاطين واربع جنرالات واربع رؤساء عدا الحوافز وتحسين المعيشة والخدم والحشم والسفر والفنادق ذات العشر نجوم يحتاج حتما الى مشير يتزلف له ويجد له نصا شرعيا يقدمه له على هيئة نصيحة تقول انه بمجرد ان يدفع الخمس (وبعضهم لا يدفع لان الخمس من مستحقاته)، او بمجرد الذهاب للحج او دفع زكاة رأسماله الذي حصل عليه من تعبه «في خدمة الشعب» سيعود طاهرا نقيا خاليا من كل عيب،

هؤلاء قتلة الشعب الاتقياء يعملون على طريقة اعمى يقود اعمى، والنتيجة اما ان تكون اعمى او تكون خارج اللعبة، بتدبير محكم عبر شبكة من العميان الذين يطلقون الرصاص على كل من يبصر، قاعدة مقلوبة ولكنها تسير وفق برنامج صنع خصيصا للكشف عن المبصرين والمتعففين والذين لديهم حصانة ضد النفاق والرياء والكذب.

المنافق مطلوب في مجتمع يقوده جهلة نرجسيين طماعين، لأنه يقول لهم ما ليس فيهم ويبرر لهم ما لا يجوز تبريره، والغريب ان عدد

المنافقين يتزايد بسرعة غريبة، لانهم يحصلون على مكافآت وفرص وحوافز لا يحلم بها احد، فإلى جانب مرافقتهم في اسفارهم، يحصلون على امتيازات تفوق الخيال، حتى تكون أحيانا اعلى من امتيازات المعالي ودولة الرئيس نفسه. وربما سنتحول جميعا بالتدريج إلى منافقين، ثم لا نحتاج بعدها الى عناء البحث عن اهل العفة والشرف لانهم سيكونون قد اختفوا من المسرح تماما او انقرضوا.

رأسمال الحافي Shoeless capital

طرق بشر الحافي الباب على صديق له، فكلمته فتاة صغيرة من خلف الباب وسألته: من الطارق؟ قال: انا بشر الحافي قالت الفتاة: لو اشتريت نعلا بدانقين لذهب عنك اسم الحافي، فاطرق بشر وقال في نفسه ماذا ينفع ألنعل اذا كان القلب عاريا والعقل لا مرشد له.

الواقع ا ن الحافي ليس الذي لا يملك نعلا او خفا، الحافي هو الذي ليس لديه رأسمال يتكئ عليه عندما يفقد الناس رؤوس أموالهم، ورأس المال المقصود ليس الدراهم والدنانير، وانما رأسمال من العفة والخلق والعلم.

ولقد سمعت ان رجلا متعففا في زمن الحصار اكل الحنظل حتى مات ولم يسأل احدا من الناس شيئا.

وفي زمن الحصار باع خلق كثير من العراقيين اثاثهم ونوافذ وأبواب بيوتهم ووسائد نومهم حتى اذا لم يبق معهم شيء للبيع اضطر البعض لبيع أولادهم ومنهم من باعوا جلودهم، وبسبب الحصار تبدلت منظومة

القيم تبدلا خطيرا، فما كان بالأمس عيبا لم يعد اليوم كذلك، وما كان حراما اصبح حلالا، وما كان يبعث على الخزي والعار صار مدعاة للفخر، وما كان شاذا صار مألوفا.

ومن اخطر مظاهر التبدل القيمي، انتشار ظواهر كانت حتى وقت قريب تثير الاشمئزاز وتضع مرتكبيها في خانة المنبوذين اجتماعيا، مثل الكذابين ولصوص المال العام والغشاشين والقفاصين والسماسرة، الذين تحول احدهم بين يوم وليلة الى شريف، وسبع وذيب وشاطر.

وبسبب هذا الانقلاب القيمي الخطير تحول الجاهل الى عالم واللص الى ذئب، والمرتشي الى شاطر والمقامر الى مستثمر والدجال الى رجل دين وباعة الوطن الى مواطنين، وضمن هذه التشكيلة المرعبة للتحول الاجتماعي والثقافي دخل تجار التسول المتخصصين بفن ادارة الاستدراج النفسي والتأثير العاطفي ليخنقوا شوارع بغداد بجيش من ذوي العاهات وباعة المفرد والعجائز والأطفال والفتيات والمرضعات مع أطفالهن الرضع وحتى الشابات، فالذي لا تستثيره العاهة ولا الملابس الرثة تستثيره غريزة العطف على الطفل الذي يجوب الشوارع حافيا والذي ينبغي ان يكون في المدرسة اسوة بنظرائه، والذي لا يستثيره الطفل ولا العجوز قد تستثيره المرضع التي يلتوي صغيرها على كتفها في الحر الشديد، اما الذي لا تستثيره هذه ولا تلك فقد تستثيره حسناء عليها كل معالم العفة والشرف كما تبدو في القفازات السوداء التي ترتديها لكي تكون محتشمة لأقصى درجات الحشمة، والويل لمن يتغزل بها او يسألها ما لا تحب او يحاول لمسها حيث يخرج عليك من تحت الأرض مراقبين

عن بعد وربما يطلبونك للحق العشائري او يهجمون عليك مثل فرسان القرون الوسطى.

ولقد بدا لي ان ادارة مؤسسة التسول أكثر تنظيما في ادارتها من ادارة أية مؤسسة من مؤسسات الدولة السائبة التي تعمل دون ضابط ولا رابط. ومن محاسن مؤسسة التسول انها تعمل وفق جداول زمنية دقيقة جدا وهي لذلك تحترم زمن العمل احتراما اكثر حتى من الالمان المعروفين باحترامهم الشديد للزمن. ولو ان مؤسسات الدولة العراقية استعانت بخبراء التسول في استخدام الزمن في العمل لما حدثت ازدحامات في الشوارع ولما احتاج المواطن ان يأتي ويذهب لستين يوما قبل ان يحتفل بحصوله على بطاقة أحوال مدنية او ينام عند بوابات المرور لأشهر لكي يحصل على لوحة أرقام لسيارته.

لقد اصبح المتسولون وارباب المتسولين وصناع المتسولين اكثر من عدد السكان واكثر من الرمل والحصى واغنى من السياسيين وسراق المال العام واغنى حتى من الأطباء والصيادلة الذين صاروا لسوء الحظ يتنافسون مع المتسولين في الثراء. انها ولا شك وصمة عار في جبين المجتمع ان يتحول نصف سكانه الى متسولين أثرياء ونصفهم الاخر أثرياء بالغش. ولم يبق الا اقل من القليل من الفقراء المتعففين الذين يأكلون الحنظل حتى الموت

مافيا التسول جزء من مافيا الفساد التي صارت تنهش بمناقيرها الحديدية جثة الوطن الذي اعلن موته المبكر عبر مكبرات الصوت منذ ان وطأته سنابك خيل الغزاة بفرق استطلاع وجواسيس من ابناء

جلدتنا الذين كانوا عينا ودليلا على ثروة العراق وشرف العراق وحلم العراق. الغزاة لم يبخلوا علينا بالخبز والحرية، لا سيما حرية النهب والسلب والخطف والاغتيال وتقطيع مكونات المجتمع وعزله بالديناميت والإسلاك الشائكة والكونكريت التي اخذت منحى اخر بعد ان ترك الغزاة وكلاءهم من ذوي المخالب والانياب. الوكلاء صاروا اعتى من الغزاة انفسهم، واذا كان الغزاة قد اكتفوا بمحتويات البنك المركزي والنفط والمتحف الوطني فقد تجاوز الوكلاء حدود المعقول في القتل والنهب والتدمير وتجفيف منابع المعرفة والأخلاق. انها محنة وطن افرغ قصدا من العلماء والسياسيين والتجار وقادة الرأي ليحل محلهم متشردين ومتسولين وافاقين.

التسول مرض من أمراض المجتمع، تظهر اعراضه متزامنة مع سوء الإدارة وغياب الرقيب وتدني الاخلاق وضياع الحقوق وتزايد عدد الفقراء واشباه الفقراء وتسلط المنافقين والاغنياء بالصدفة. ولأنه مرض فانه يحتاج عناية خاصة والا فانه سيخرجنا من ملكوت اللّه.

صناعة الأصنام
وعبادة الأصنام

Making and Worshiping Idols

لم يكن الوثنيون مع تعبدهم لآلهة عديدة أغبياء ذلك انهم توصلوا الى ان يعطوا العالم البائس تصور عن تحالف بدائي مع العالم غير المنظور

(جورج برنانوس؛ يوميات كاهن ريفي)

المقدس Scared

كانت العرب تحيط الكعبة بثلاثمائة وستين صنما «idols»، بأحجام وأشكال والوان مختلفة، وكان لكل قبيلة ونصف قبيلة وشبه قبيلة صنما خاصا، له اصل في مكة وفروع في المضارب[(١)]، وكان الناس اول شيء يفعلونه في اسفارهم ان يستأذنوا اصنامهم وعندما يعودون يركعون لها قبل ان يركعوا لزوجاتهم، ويقبلون احجارهم قبل ان يقبلوا أولادهم، يحتمون بهم في الغزو والأزمات والكوارث والجدب والقحط والمطر والبرد والحر، في الزواج والطلاق والموت والحياة. كان للأصنام دور في

١- المضارب: تعني المكان الذي يبني فيه البدو خيامهم، او منطقة سكنى ونفوذ القبيلة بما في ذلك مراعيها وأماكن حركتها اليومية، وتعني أيضا الفسطاط العظيم. انظر: معجم المعاني الجامع، والمعجم الوسيط.

دورة الحياة الكاملة، ويعود ذلك كله اما لجهل او لفائدة، اما الجهل فهو صفة ملازمة لعامة الناس الذين لا يميزون بين الناقة والبعير، وكان من اليسير إخضاع هـؤلاء بسهولة ويسر للسدنة والعرافين والسحرة والكهان الذين احاطوا اصنامهم بقدسية خاصة، وعلى الطرف الاخر كان الاذكياء الذين اخترعوا للأصنام هيبة الآلهة وقدسيتها وربطوهم قسرا بالسماء يفعلون كل شيء من اجل الحصول على الثروة والسلطة، انها معادلة لا تحتمل الربح والخسارة لأنها تقوم على توازن غريب بين قوة العادة وضعف الاتباع وبالتالي يبقى الرابح في موقعه رابحا على طول الخط والخاسر في موقعه أيضا، ولابد ان يكون هناك ما يشبه التنظيم الطبقي المسبق للاعبين في مسرح الحياة، لكي يستمر الوجود بشكله العبثي هذا. ولعل وجود مثل هذه المعادلة الماجنة كان السبب في وجود نظام العبودية الابدي حتى يومنا. لا ينفرد العرب بهذه القصة، فمازالت بعض شعوب الأرض تصنع الأصنام وتركع لها، واذا كانت العرب تصنع الأصنام من الحجارة والخشب والطين والتمر، مازال بعضهم يصنعها من الذهب والفضة ويعتنون بها عناية فائقة، والغريب في هذه الأصنام انها غالبا على هيئة بشر، لم يكن بمقدور احد قديما او حديثا ان يتخيل «صنما ـ الها» على هيئة بجعة بيضاء او ارنب بشفة مشقوقة او وحيد قرن شديد السمنة، حتى آلهة النصارى واليهود -الذين يزعمون التوحيد- كانوا على شكل مسيح مصلوب او اله على شاكلة البشر يلهو مع يعقوب النبي في صراع ودّي.

كلها في الواقع لعبة لصغار القطط مع الأسود، لعبة عبثية اريد لها ان

تكون ناموسا[١] لعلاقة أخلاقية تحكمها العادة التي استحكمت بين من يملكون مفاتيح المعبد والذين لا يملكون غير الاغلال، هذه العلاقة المختلة هي التي دفعت كارل ماركس لوصف الدين بانه « أفيون» «وانه مساعد خادع يترافق مع البلاء» نعيسة (٢٠١٠) وهي ذاتها التي جعلت فرويد يعتقد انها علاقة عصابية بين مرضى خائفون، وأسياد فنانون في تعميق الهستيريا الجمعية من أجل الحصول على السؤدد.

Freud (1939)

العبرة ليست في التاريخ ولا بالأسطورة ولا في فن صناعة الأصنام بذاتها، العبرة في مدى تحول العادة الى عبادة، في قدرة الفكرة على تحويل العادة الى هوة سحيقة يدفن فيها ملايين البشر من دون ان تثير في احد شفقة على أولئك الذين كانت لهم احلام قرمزية عن الحب والحرية والانعتاق، أولئك الذين يدفنون في مقابر مفتوحة على طول التاريخ وعرضه من اجل أفكار صنمية او أشخاص تحولوا بفعل فاعلين الى أصنام بدم ولحم.

١- الناموس، كلمة من أصول فارسية تعني القانون او الشريعة، وجمعها نواميس وتشير الكلمة في معناها الواسع الى محتوى الديانات السماوية الكبرى كاليهودية والنصرانية المستمدة من مصدر واحد، وهو اسم من اسماء جبريل «عليه السلام»

معجم المعاني الجامع والمعجم الوسيط

صناعة الأصنام، وعبادة الأصنام ليست دينا وليست شريعة وليست ناموسا، انها خدعة مكشوفة لتدجين الناس ومصادرة مستقبلهم، خدعة تحرسها سكاكين سامة وكواتم صوت ومفخخات، واسماء تشم فيها رائحة الرعب.

هذه الاصنام التي تتحول فيما بعد كما يقول «دوركهايم» ١٩١٢ الى كائنات اكثر قدسية من الآلهة نفسها، لم تعبد الا لأنها - بزعمهم - أرواحية[١] animism أي أن أرواحا شريرة او خيرة تستوطن فيها، وانهم منعا للضر يتوسلونها وطمعا في النفع يتوددون اليها، انها لعبة قديمة جدا اخترعها اسلاف الجنس البشري في الماضي السحيق عندما كانت العلاقة مع الطبيعة علاقة غير متكافئة يقودها الجهل ويحكمها الخوف ويستوطنها الغموض، فكان التمسك بالأصنام أشبه بهلوسة كانت حاجة الانسان اليها كما يقول «فرويد» ١٩٣٤، ملحة من اجل التغلب على مخاوفنا من قوى الطبيعة وخاصة الموت الذي كان يمثل هاجس الانسان الاكثر رعبا والذي يقف امامه بكل مظاهر العجز. ورغم التقدم العلمي

١- الارواحية: مشتقة من اللاتينية وتعني النفس او الروح او الحياة وانها ذات هوية غير بشرية، أي قد تكون حيوان او نبات او جماد وتمتلك في جوهرها أرواحا، وهي من العبادات الشائعة لدى بعض القبائل البدائية وهي شكل من اشكال العبادات الطوطمية التي يعتقد اتباعها بحلول روح احد أسلافهم القدماء العظام في شجرة او حيوان او حجر فيصبح لذلك مقدسا.

Stringer 1999

الهائل والسيطرة اللامحدودة على الطبيعة مازال خلق كثير يؤمن بأرواحية الاصنام ومنها اصنام المجتمع، وقد تجد من لازال يصدق ان حجرا جيء به من جرجان يطرد الجن والعفاريت، واخر جيء به من اليمن يجلب الرزق، ونوع من الحصى كانت تبول عليه كلاب بلخ له قدرة الاشفاء من امراض الكبد الوبائي، واخر يتكاثر في بلاد ما وراء النهر يجعل النساء يتهافتن عليك مثلما تتهافت الفراشات على سنا النار، فيما يقف الرجال طوابير على باب المرأة التي تحمل هذه الحصاة.

هذه المعتقدات doctrine الاكثر بدائية ما زالت تلزم بعض عبيد الاصنام بالتصرف وفق نواميس الخرافة التي انتشرت بشكل ملفت في الفترة الأخيرة، الى جانب كثير من العرافين والسحرة والدجالين الذين ملئوا الدنيا بأكاذيب وخزعبلات تحت ظروف يكتنفها الغموض، وهي التي شجعت هؤلاء للبحث عمن يستطيع قراءة المجهول

وكلما ازدادت تعقيدات الحياة وازداد معها الجهل بأسباب بعض الظواهر كالمرض والفقر وسوء الطالع misfortune كلما ازداد تمسك الناس بالبحث عن اشخاص لديهم القدرة على تزييف الحقائق التي تحيط بالمجهول. وقد ساهمت بعض الفضائيات الرخيصة بترويج سلعة العرّافين وقرّاء الطالع، ولو رأيت طوابير الناس الذين يقفون على أبواب هؤلاء الدجالين لأصابك الفزع، فيهم معلمين وأساتذة وطلاب جامعات، عدا ربات البيوت والعوانس والعاقرات، فيهم أثرياء وفقراء، وفيهم فئات من كل الإعمار، وقد اثرى هؤلاء الدجالون ثراء فاحشا، حتى صاروا يكسبون اكثر من الأطباء وأساتذة الجامعات وأصحاب المهن، استثني

الأطباء الذين تحول بعضهم الى منجمين وسماسرة وتجار.

الأخطر من هذا كله ازدادت الأصنام عدديا وازداد مؤيدوها نفاقا وتطبيلا فأوهمونا ان ظل الشجرة هو الشجرة حتى صرنا نقطف الثمار الوهمية من ظل الشجرة لا من الشجرة ذاتها وبذلك بدأنا نرى الأشياء كما يراها النائم فيما ظل الاتباع يرقصون المامبو جامبوا[١] بطريقة هستيرية hysterical way على الرغم من معرفتهم بخفايا الخراب الذي أحدثته الأصنام في النظام والأمن والمال العام.

سحر الصنم the idol's fascination

ذلك ان العبيد يفقدون كل شيء في اغلالهم

حتى الرغبة في التخلص منها.

روسو

وبينما كان الناس في زمن الخوف يرقصون للصنم في العلن ويشتمونه في السر مازالوا في زمن الفوضى chaos يتوددون للأصنام ويحقرونها في ان واحد. ثنائية غريبة لا تحدث الا في زمن الجوع، وحتى مع الرفاهية

١- المامبو جامبو: مشتقة من Maamajomboo في اللغة الماندينغية وهي رقصة أفريقية تمارس اثناء الطقوس الدينية بواسطة رجل مقنع وهي لا معنى محدد لها، والمصطلح الانكليزي Mumbo jumbo يشير لشيء لا معنى له او غير مفهوم

فإننا لا نستطيع ان نحيا بلا أصنام، وقد جبل خلق كثير على الاحتفاء برموز وشخصيات ليس لها في أمور السياسة وشؤون الناس شيء، انهم أدوات تشبه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ورغم جهل وجشع وانحطاط هذه الشخصيات الا انها تملك تأثيرا نفسيا على اتباع كانوا على مدى عقود كما لو انهم خرجوا من باطن الأرض، يهتفون لهم، ويعلقون أسمائهم أيقونات قدسية على صدورهم وفي الشوارع والازقة والبيوت، في المدارس ومعاهد العلم والمشافي ودوائر الدولة وفوق المباني والجسور ومفترقات الطرق، وهم لا يعرفون عنهم الا أسماءهم الحجرية. بعضهم لم يكن يملك ثمن وصفة طبية وبعضهم كان يعيش على معونات دول أجنبية فيما كان اخرون يغنون في مواسم الحصاد، وفجأة تحولوا بقدرة قادر من متسولين الى مسؤولين وامتدت انسابهم الى ما قبل آدم، ثم صاروا يملكون الأرض وما عليها، افقر فقير فيهم لديه حسابات بنكية وارصدة سرية بملايين الدولارات، واستبدلوا جلابيبهم الرثة بعلامات تجارية شهيرة لا يستطيع اثرى الأثرياء ان يشتري مثلها، هذا عدا السيارات المصفحة وعشرات الراكضين خلفهم وأمامهم، ومن الخدم والجواري والحسناوات ما لا يعد ولا يحصى، وحوّل بعضهم مقرات عملهم الرفيع الى مستنقع للعهر الجسدي والأخلاقي والعقلي.

وفي خضم الفوضى الأخلاقية التي رافقت الفوضى الأمنية، لم يظهر بعد من يقود التاريخ الى المعتقل ويضع القيود في قدميه لكي يوقف الدناءة التي أحاطت بأصنام المجتمع.

الأصنام التي كانت العرب تصنعها ثم تأكلها، او تتاجر بها او تستقسم

بها، ظلت تتجدد حتى بعد ان أستمكن الاسلام وهشم اخر هبل في اعالي الجزيرة، سقطت أصنام وأعيدت هيكلتها بحيلة شرعية، وسقطت أخرى وعادت للحياة بأسماء جديدة والوان جديدة واثواب جديدة، ولكن لا احد يجرؤ على القول بان الأصنام الجديدة التي صارت تتناسل على طريقة الديدان هي اخطر بكثير من الأصنام الخشبية التي كان يلوذ بها الخائفون ويستنجد بها المهزومون، لان الأصنام القديمة كانت عارية وحافية الاقدام وغير قادرة على الهمس في اذن الطريق الذي يسلكه الفرسان العائدين من غزواتهم.

وبنفس الطريقة التي صنع بها أسلافنا احجارهم واخشابهم التي يعبدون، صنعنا نحن احجارنا بدم ولحم، ولكن احجارنا اكثر ديناميكية واشد ضراوة واكبر حجما وأطول يدا، ثم صار فقهاء العشيرة يصلون ويصومون ويتصدقون من اجل احجارهم لا من اجل الفقراء، حتى صار عدد المتسولين في بغداد اكثر من عدد السكان.

في زمن الأصنام التي تتناسل بسرعة لم يعد حراس المعابد يحرسون كنوز الآلهة لأنه أساسا لم يبق من الكنوز شيئا يخشى عليه من اللصوص المحترفين، ولذلك تركت المعابد للمتاجرين بآلام الجياع وانين المرضى وتأوهات النسوة اللاتي ينتظرن العرسان الذين فروا لغير وجهة.

الأصنام التي خلقناها على شاكلتنا، وصفقنا لها وحملناها على الاكتاف لم تعد تكترث بسبب تجاوزها الخطوط فوق الحمراء وفوق البنفسجية وفوق الزرقاء لمعادلات العقد الاجتماعي المعروفة، وفي ذلك أقفلت كل الأبواب امام صراخات الفقراء واليتامى وأبناء السبيل...

صار للأصنام نظام غذائي تحرسه آلهة الطعام كما يقول الجواهري×، وحسابات بنكية بالعملات الصعبة وغير الصعبة بملايين لا تعد ولا تحصى حتى أصبحت الخزائن والثروات التي تحت الأرض وفوق الأرض، وخبز الناس واثوابهم وأحلامهم كلها مجتمعة فقط لسد نفقات الأصنام، ثم صار للأصنام اتباع وجيش من العاطلين والمقامرين والسوقة وشذاذ الآفاق والبهائم، هؤلاء الاتباع ذهبوا ابعد من حدود في إشارة لقصيدة اكبر شعراء العراق المعاصرين محمد مهدي الجواهري ت: ٢٠١٢ في عمان بعد فترة تشرد قضاها متنقلا عبر القارات بعد ان سحبت منه الجنسية العراقية لمعارضته الاستبداد، ومطلع قصيدته:

نامي جياع الشعب نامي   حرستك آلهــة الطعــام

المألوف في عبادة الأصنام والتماس رضاهم والحصول على بركاتهم، رغم ان اصنامهم لا يرون ولا يسمعون ولا يتكلمون، واذا تكلموا قالوا كفرا، ثم بدا لهؤلاء الاتباع ان يفسروا حركات وايماءات وأقوال الأصنام بما يلجم الناس ويدفعهم قهرا للسكوت عن المآسي التي سببها هؤلاء الافاقين الذين صارت لهم أيدي يبطشون بها واذرع يسرقون ويعبثون بها في وضح النهار دون رادع كما كان أسلافهم يفعلون ايام كان الصنم الكبير يعبد وحده.

أحجار بدم ولحم stones with blood and flesh

مشكلة الأصنام انها تحولت بفعل فاعل من أحجار ملقاة على قارعة الطريق «كأنها ولدت من العدم « الى أحجار بدم ولحم، صار لها تاريخ

يحميها عند الضرورة من تأويل المعاندين ومن دعوات اهل الرايات وايماءات أهل الحل والعقد، تاريخ مكذوب عليه ومكذوب له ومكذوب فيه، ولكنه بكل مقومات الزيف التي فيه كان يمتلك قوة سحرية مستمدة من قواعد مقدسة لم تكن مألوفة حتى امس القريب. وعلى اية حال فان الأصنام التي صنعناها لم تكن تعبد لأنها ذات طبيعة قدسية وانما لأنها ذات منافع مادية، فباسم الصنم تتم كل الصفقات المريبة، وباسم الصنم تفتح حسابات وتغلق حسابات، وباسم الصنم تنهض مخلوقات من تحت الأرض وتدفن أخرى تحت الأرض. الصنم ذاته ربما لا يعلم وربما يتغافل بسبب حصوله على حصة ضئيلة من عائدات الاحتيال تحت مسميات قدسية «كالخمس والزكاة» الا انه في الاغلب تتم كل الصفقات من خلف ظهره حتى صار الاتباع اكثر ثراء من اصنامهم ذاتها.

لقد كان لهؤلاء الاتباع ماكنة إعلامية عملاقة استطاعت ان توهم ملايين الناس بطهارة الصنم وصدقيته وحبه للفقراء، ولعل الصنم نفسه صدق هذه الكذبة غير المتعمدة فانتفخت أوداجه كبرا وصار ينظر لبقية الخلق من ثقب ابره حتى لا يرى احدا اكبر حجما من يرقة على شجرة. اما الاتباع فقد تحولوا الى ما يشبه الماشية كما يقول ابن الكلبي في وصفه لاتباع الأصنام في مكة قبل الف وخمسمئة عام.

اعرف انه سيأتي يوم وتتبدل اتجاهات Attitude الاتباع الذين حملوا الأصنام على الاعناق وبين الحنايا كما هو شأنهم على طول التاريخ وعرضه وعندها ستسمل عيون الاصنام على الطريقة التركية وربما يقوم الاتباع بوأد الأصنام على طريقة البدو الخصيان، وتتكرر دورات الذبح

المجاني على مرأى ومسمع أهل الأرض والسماء، ثم نعاود سيرتنا الأولى، نخلق اصناما جديدة ثم لا نلبث ان نرقص على اشلائها، فاذا حدث ذلك واضنه يحدث، فسوف لن يكون بمقدورنا ان نقبض على التاريخ متلبسا لنلقي به في غياهب السجون مع السفلة والمحتالين وسراق المال العام.

فوضى الرموز الثقافية

كما تبدو على واجهات وجوانب
وسائل النقل العام

Chaos of Cultural Symbols
As it appears on the sides and backs
of the public transport vehicles

وعظ عيسى (ع) بني إسرائيل، فأقبلوا يمزقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب؟ اقبلوا على القلوب فعاتبوها.

اللغة وعاء المعرفة

Language: the body of knowledge

لا يكاد يخلو مفصل من مفاصل الحياة الاجتماعية من الرموز، فإلى جانب اللغة التي تنطوي برموزها على دلالات هائلة للمعاني، هناك العلامات، والإشارات والايماءات التي قد تغني عن اللغة المنطوقة والمباشرة، لتتحول الى احدى مقومات التفاعل بين الناس. والرموز اللغوية اكثر انواع الرموز شيوعا في حياة المجتمعات وتؤدي وظيفة تسهيل عملية التفاعل الاجتماعي ونقل القيم والعادات والاعراف والتقاليد من جيل الى اخر عن طريق التنشئة، واللغة كشكل من اشكال الرموز يقول ليزلي وايت White L. هي التي نقلت اسلافنا من اشباه البشر الى رجال او نساء وجعلتهم بشرا. كل الحضارات نشأت وترعرعت بواسطة الرموز، وخصوصا الرموز اللغوية (الكتابة)، واللغة كما يقول سابير E. Sapir (١٩٢١) هي احدى مفاتيح الثقافة وبواسطتها يمكن

التعرف على نمط العلاقات السائدة ونوع المشكلات وحجم التفاعلات بين اعضاء المجموعات البشرية. وهي كأداة من ادوات الثقافة بمقدورها ان تحمل رسالة، فهي وسيلة وسيطة بين المرسل والمتلقي، ويعتمد تأثير الرسالة على فاعلية اللغة المستخدمة، فمثلا عندما تقول «سمكة كبيرة» قد تعني انها سمكة ذات طعم طيب وخالية من العظام، او هي حوت من الحيتان التي تلتهم الاسماك الصغيرة، وربما يقصد بها كبار اللصوص وقد تعني دولفين صديق للإنسان، او شارك (قرش) متعطش للدماء. ولكن في مثال اخر يمكن ان تكون الرسالة مباشرة وواضحة لان اللغة كأداة او وعاء للرسالة بسيطة وغير قابلة للتأويل والتفسير فمثلا عندما تقول «سأذهب للشاطئ» أو «أعود للبيت» قد لا تعطي اكثر من المعنى المتداول وهو « النزهة على الشاطئ» ومحطة كل الناس الاخيرة ان يعودوا لبيوتهم.

وعلى هذا الاساس تصبح اللغة كأداة ثقافية تحمل رموزا بعضها ذات دلالات اجتماعية، اقتصادية، سياسية أو أخلاقية، أو انها ذات طبيعة مشفرة قابلة للتأويل والتفسير تبعا لأهداف الجماعات.

قبل عدة عقود من الزمان كانت الرموز الثقافية السائدة على واجهات وجوانب سيارات النقل العام ذات طبيعة اجتماعية ـ دينية والى حد ما سياسية، وهي كذلك اليوم، ولكن لغة التعبير تبدلت واضيفت لها بعض الرموز اللغوية ذات الطبيعة الاجتماعية – السياسية الأكثر حدة ورمزية، فمثلا كان يكتب على جانب السيارات او مؤخرتها عبارة «لا تسرع يا بابا فالموت أسرع» مثل هذا الاعلان لن تجده على وسائط

النقل العام هذه الأيام، وكأن الناس لم يعد يهمهم كثيرا ان يموت الاب بالسرعة، لأنهم من جهة تعايشوا مع الموت عبر اكثر من ثلاث عقود من الحروب العبثية، ومن جهة أخرى لم تعد فوضى الشارع تسمح بالسرعة، وكان يجب ان تستبدل العبارة بـ «لا تدفع بنفسك الى الخطر بالتغالب مع الاخرين»، ولكن شيء من ذلك لم يحدث رغم ان حوادث السيارات والاضرار التي تلحق بالأفراد والمركبات والممتلكات ربما زادت ستين ضعفا، الا ان الناس مازالوا لا يدركون على وجه التحديد الفوضى الاخلاقية المرافقة للفوضى المرورية السائدة في الشارع. واستثناء وجدنا عبارة واحدة لم تتكرر كثيرا على الواجهة الخلفية لسيارة حمل تقول «لا تسرع يا بابا لان ماما راح تتزوج غيرك» وهذه عبارة فيها من النرجسية وسوء الظن بالأنثى ما يعطي انطباعا مؤلما، فالغاية من العبارة ليست الخوف على الاب من الموت بسبب السرعة او الخوف على الأنثى من فقدان الشريك، وانما تجريم الانثى عن فعل لم يحدث وقد لا يحدث ابدا، ولان الانثى مازالت تحتجز في علب التخزين حتى الموت فإنها ظلت متهمة على الدوام، وحتى لو أعطيت إجازة مؤقتة لمغادرة غرفة احتجازها فإنها تنقل في احسن الأحوال الى حجرة انعاش مكيفة لا تغادرها حتى تسقط اسنانها، وعندما تصل الى هذه النقطة من العمر، وفي عملية تدجين لمدة ستين سنة تتحول الى سجان مساعد (على وزن استاذ مساعد) وعندها فقط يصبح بمقدورها ان تتخلى عن بعض مخاوفها الشاذة التي كانت تقودها على طول فترة اعتقالها الى ممارسة وظائفها النفسية بنصف طاقتها او اقل بقليل. هذه العبارة تسجل موقفا ذكوريا متقدما يدافع عن

شهوة التملك حتى في مرحلة ما بعد الموت وهي شهوة لا يستطيع الذكر التخلي عنها ليس لأنه شديد التعلق بها او لأنها غير موثوق بها وانما لأنه الوحيد الذي يعرف رغبتها غير المعلنة في الفرار من غرفة الانعاش قبل ان تسقط اسنانها، وبسبب اختلاف نسبة الإحساس بالانتماء الجنسي (gender) بين الذكور والاناث تحول الذكر الى قائم بأعمال السلطان وتحولت الأنثى الى جارية تعمل خادمة في النهار وعاهر في الليل. علاقة ليس فيها انصاف للأنثى وليس فيها انصاف للذكر، كلاهما مكبل بقيود من التقاليد التي تضع الاصفاد في الاعناق بدل الاقدام، وعليهما معا احداث توازن غير مسبوق بين قوة بحجم جبل وأخرى بحجم نملة.

والافتراض، ان الناس لا يلجؤون الى ترميز أهدافهم وأحلامهم وطموحاتهم، الا اذا كان هناك خللا في بنية وتركيب المجتمع او السلطة التي منحت حق تمثيل الافراد وتحقيق حاجاتهم. فهل تمتلك الصفحات القادمة مصباحا للكشف عن دلالات الرموز المكتوبة على واجهات وجوانب سيارات النقل العام، التي تبدو وكأنها اعلان ناطق عن الفوضى الاخلاقية والقيمية التي تعكس تردي الوضع الاجتماعي ـ السياسي، المتسبب في تعطيل القوانين والاعراف الملزمة التي تقوم بعملية الضبط الاجتماعي، قد يحدث ذلك في القادم من الكلام.

يقول كونراد (Conrad ١٩٦٧:٨٥) «انه من بين كل المخلوقات على وجه الارض الانسان وحده يمتلك اربعة اضعاف قدرة اقرب المخلوقات اليه للتعلم وخلق الرموز والمناورة بها وتعليمها» ليس لان حجم الدماغ لديه اكبر، وليس لأنه ذو قامة مستقيمة او يستطيع ان يمسك الاشياء

بيديه دون الاستعانة بأسنانه، ولكن لأنه يمتلك القدرة على الاتصال بطريقة اكثر فاعلية، بالكلمات والاشارات والايماءات والكتابة والرسم والأرقام، ومؤشرات رمزية للثروة والقوة والمهنة والعمر والجنس واشياء اخرى كثيرة. الانسان وحده يستطيع ان يتكلم بكلمات نظيفة مختارة بعناية وذات دلالات يمكن ان تفهم من قبل اغلب اعضاء المجتمع. ومنها اشارات ورموز يمكن ان تفهم من كل اعضاء الجنس البشري (Morris ١٩٨٧)، يمكنك ان تمد يدك لتصافح شخصا اخر من مدينة اخرى او بلد اخر او قارة أخرى، وهو يعرف الدلالة المعنوية لها، ويمكنك ان تذرف الدموع فيعرف شخص اخر في اقصى الارض انك تتألم، كما يعرف شخص اخر في مكان اخر انك في حالة مزاجية طيبة عندما تبتسم مليء شدقيك، وبالرموز وحدها تفوق الانسان على بقية الاحياء في هذا الكوكب.

والرموز لها قانون اجتماعي ينظم استخدامها، والا تحولت الى فوضى تشبه فوضى باعة الارصفة في بغداد، او فوضى الشعارات والرموز الكتابية على واجهات وجوانب سيارات النقل العام.

والحق ان الفوضى تتعافى مع الخراب وخصوصا فوضى الشعارات وتنحسر مع النظام وتتضاءل مع تعاظم سلطة الدولة والمجتمع. ولقد فسر احد رواد المدرسة التفاعلية الرمزية جورج هيربرت ميد G. H. Mead ١٩٣٤، فوضى الرموز من منظور الوعي بالذات، مشيرا الى ان الرموز هي اشياء تفسر اشياء أخرى، واننا حالما نتمثل الرموز فإننا لا نحتاج ان تكون خصائصها المادية شاخصة لكي نعرف انها هناك. لأنها

عندئذ ستكون لها صورة في اذهاننا تعكس موضوعا او قيمة، او تستثير حالة عاطفية، نفسية او أخلاقية، فكلمة شجرة مثلا هي رمز لشاخص مادي بأوراق وأغصان، ولكن حالما تستقر صورتها في وعينا فإننا نتعلم التفكير بطريقة تجريدية او رمزية، وهذه من شأنها ان تحررنا من سجن الخبرة المقتصرة على ما نرى، نسمع أو نشعر.

اننا في الواقع كما يقول جدنز نتفاعل رمزيا في اكثر علاقاتنا العابرة منها والدائمة، القصيرة الامد والطويلة، المباشرة وغير المباشرة. وفي تفاعلنا غالبا ما نبحث عن مفتاح يفسر لنا ماذا يريد الاخرون او ماذا يقصدون. بمعنى اننا لا نحتاج فقط الى فك رموز الرسائل المشفرة التي تبعث لنا وانما على الاخرين ايضا ان يبحثوا عن مفاتيح لمعرفة بعض الطلاسم التي تتضمنها رسائلنا المشفرة والصريحة. Giddens ١٩٨٩

واللغة ارقى واغنى الرموز التي اخترعها الانسان، وهي جزء من ثقافة اي مجتمع ووسيلة من وسائلها، او كما يقول كونراد «هي الثقافة وهي واسطة نقل الثقافة في ان واحد» P.١٠٠، واذا كان الامر كذلك فأن تفاعلاتنا وعلاقاتنا واشياءنا من الاسماء التي نطلقها على انفسنا، الى المعاني التي نمنحها للأشياء كلها رموز ثقافية ذات قيمة عملية تدخل في مكونات ما نأكل أو نشرب، نتعاون أو نتنافس، نقرأ أو نكتب، ننام أو نستيقظ، وحتى عندما نحب أو نموت، فأننا نحيا برموز ونموت كذلك..

والرموز كلها تختبئ تحت علم المعاني (Grimshow ١٩٨١) الذي يمنح الحروف المكتوبة لأسم مثل الكلب أو الأنثى، أو الفجر، صورة ذهنية تجريدية، نعرفها هنا ويعرفها نظراء لنا في مكان اخر، أو قارة

اخرى أو عالم اخر، فالألماني يعرف ان الفجر هو الفسحة الزمنية بين انحسار الظلام وطلوع الشمس، والالماني نفسه لا يجهل ان الحليب سائل ابيض لزج يستخدم كغذاء للأطفال والكبار ويمكن الحصول عليه من أنثى الانسان او الحيوان الذي له حجم معين ولون معين ووظيفة معينة وهي الصورة الذهنية ذاتها التي يعرفها العراقي والشامي والهندي والاسترالي، بيد ان الرموز التي تمتلك عمومية في الفهم، ليست كل الرموز التي نتداولها، فبعضها يمتلك خصوصية يحددها الزمان والمكان (زيعور ١٩٨٤) والمعاني هنا ترتبط بالمكان وبالشكل البنائي للمجتمع ومؤسساته وطبيعة العلاقة بين هذه المؤسسات فعندما تجد كلمة مكتوبة على جانب سيارة نقل عمومي مثل «يا رب زوجني» قد تعني ان هناك ندرة في النساء اذا كانت على لسان ذكر، أو ندرة في الرجال اذا كانت على لسان أنثى، وقد تعني ان الرجال والنساء غير قادرين على الزواج بسبب التكاليف العالية، أو وجود ازمة سكن، أو ازمة أخلاقية، أو صعوبات في اقناع الاهل للذكر او الأنثى، كل هذه الاحتمالات يمكن ان تجدها في مجتمع مغلق تحاط فيه المرأة بعزلة لا تملك معها اي صوت للتعبير عن ذاتها او حاجاتها، وانما هناك دائما مارد اكبر من الاباء والامهات، مارد التقاليد والأعراف، التي تضع المرأة في خانة ادنى من خانة العبيد في عصور الاقطاع (زيعور ١٩٨٤) ولذلك لا تملك المرأة التعبير عن اوجاعها العاطفية الا عند اضرحة الاولياء عندما تكتب لهم الرسائل تلو الرسائل، او تكتبها على لسان اخرين على شكل اعلان يقوم به رجل مختل عقليا او حشاش. «والتحشيش» صار وجها

رمزيا من رموز التعبير عن الذات المحتقنة، وافضل وسائل الاعلان التي نكتب عليها حاجاتنا العاطفية والسياسية والنفسية، بطرائق لا توصلنا الى السجون والمعتقلات والمشانق، او على الاقل تجنبنا كواتم الصوت، وسيارات اخر الليل، والعبوات اللاصقة، هي وسائل النقل العام، ذلك ان وسائل التواصل الاخرى كالإنترنت اقل جاذبية للفقراء والمعوزين واشباه المتعلمين.

بمساعدة فريق من طلبة قسم الاجتماع المنتشرون في مناطق مختلفة من بغداد، والذين يستخدمون وسائل النقل العام، استطعنا حصر اكبر عدد ممكن من الرموز المكتوبة على واجهات وجوانب السيارات، ثم قمنا بتصنيفها وتبويبها حسب الاهداف والوظائف التي تؤديها وكما يلي:

فيما يتعلق بالأهداف:

- اهداف معلنة
- اهداف مضمرة

فيما يتعلق بالوظائف:

أ- وظائف اجتماعية - اخلاقية.

ب. وظائف اقتصادية - نفعية.

ج. وظائف سياسية - مطلبية.

د. وظائف دينية -شعائرية.

هـ. وظائف نفسية - تربوية.

وبما ان اغلب هذه الوظائف ذات دلالات رمزية ومعاني مضمرة تحتمل اكثر من تفسير، فأننا سوف نبحث عن الأهداف المضمرة خلف

الأهداف المعلنة وضمن عملية التحليل الوظيفي لهذه الشعارات والرموز اللفظية التي تم حصرها، وبطريقة تحليل المضمون المعتمدة في العلوم الاجتماعية.

لقد تم حصر ٩٠ جملة (رمز) مكتوبة على وسائل النقل العام بضمنها سيارات التاكسي. وقد تم توزيعها وظيفيا كما يلي:

الوظيفة الاجتماعية الأخلاقية

Socio-ethical Function

الرموز الكتابية التي وظفت اجتماعيا واخلاقيا اخذت الحصة الاكبر وبمعدل ٣٨ جملة ذات اهداف معلنة واخرى مضمرة، منها اكثر من النصف ذات دلالات ابعد واعمق بكثير من دلالاتها الظاهرة، مثل «**خليك ذيب حتى ما تخيب**» وهذه العبارة قد تكون الى جانب المعاني الاخرى دعوة لان يشهر الانسان انيابه ومخالبه نحو الاخرين. ففي عالم فوضوي تسوده شريعة القوة وتغيب فيه العدالة والمساواة والحق - تلك الفضائل التي تنمو مع الازدهار وتتقهقر مع الخراب - لا سبيل الى تجاوزه مادامت وسائل الضبط الاجتماعي الرسمية غائبة وشبه الرسمية مغيبة ولذلك فان البدائل المتوفرة هو ان يلجأ الأنسان الى قوة «الذئب» اي القوة الحيوانية للدفاع عن نفسه والحفاظ على بقاءه، ويعزز ذلك عبارة اخرى مقاربة لها في المعنى «**الرجولة مو بسهولة**» بمعنى انك كي تحافظ على رجولتك يتعين عليك ان تكون حذرا جدا ويقضا جدا ومناورا جدا لكي تحيا في عالم اقرب الى الغابة منه الى اي

شيء اخر. وفي عالم شديد الوطأة ثقيل الأعباء، وخطير جدا بالمعيار التقليدي للمجتمع، فأن التحاسد والتباغض والتباعد تزداد عمقا وتأثيرا، وتستلزم حالة من حالات الاستنفار القصوى بأتباع اساليب حماية مختلفة، ومن هنا رصدت حوالي خمس جمل عن التحاسد او الحسد، ومنها جملا بليغة جدا، مثل «**عضة أسد ولا نظرة حسد**» أو «**لدغة عقرب ولا نظرة أجرب**» وفيها جملة تنطوي على شكوى اليمة من النفاق الاجتماعي الذي وجد طريقة الى مجتمعنا بشكل يبعث على النفور والاشمئزاز، فتقول الجملة «**عشقت السفر من نفاق البشر**» والجملة جاءت بصيغة التعميم، وكأنها حرب الكل ضد الكل كما يقول هوبس (١٩٩٥) وهنا تجد الفقير والغني، اللص ورجل الدين، السارق والأمين، العالم والجاهل، المرأة والرجل، الكل يشكو من الكل، الكل يتهم الكل بضياع القيم وتدني الاخلاق وانحطاط المعايير، والواقع ان الكل يساهم بشكل مباشر او بالسكوت عن معايب المجتمع، وانك لتجد معلما يرمي علبة دخان من نافذة سيارته في الشارع، وطبيب يلقي بقنينة مياه غازية فارغة على قارعة الطريق، وامرأة متعلمة تلقي بأكياس القمامة قبالة بيتها ومهندس يبصق في الشارع، وتجد ايضا مدرسا يتغالب بحركة بهلوانية مع الاخرين في سيارته ليسبق الذي امامه، ثم يأتيك شخص من شمالك واخر من يمينك لكي يجتازك وعليك عندئذ ان تكون «ذئبا» لكي لا تغلب، وان تقفز انت الاخر بسيارتك امام الجميع وتخترق الصفوف من الشمال والجنوب والشرق والغرب، من فوق ومن تحت، من خلف الارصفة ومن بين الاشجار وعندها يمكنك ان تتوقع سيارة قادمة عكس

اتجاه السير او من ثقب في الارض او حتى من السماء، ثم تجد مئات السيارات وقد تحولت الى ما يشبه علب الكوكا كولا المضغوطة.

ومنها مثلا احد عشر جملة خاصة بالنساء منها مثلا «**يا رب زوجني**» أو «**تحياتي لمن دمر حياتي**» أو «**اثنين مالهم امان البريك والنسوان**» وكل جملة من هذه الجمل تعبر عن حالات اجتماعية متقاربة، هي ان الحصول على زوج او زوجة بات صعبا لأسباب كثيرة أهمها، ازمة السكن، وهجرة الشباب، وغلاء المهور او تردي الوضع الامني وسوء الخدمات والضغوط الاجتماعية التي تسهم بشكل او بأخر الى عزوف الشباب من الجنسين عن الزواج... بيد ان التحامل الشديد على المرأة كقولهم «**كلام النساء مكالمة لم يرد عليها**» أو «**حقوق المرأة في المطبخ**» أو «**عضة حية ولا حب بنية**» وجمل اخرى كثيرة فيها تحامل على المرأة، وقد لا تعكس الحقيقة وربما تكون Projection اسقاط او ازاحة لحالة احباط، حيث يصعب المساس برموز الدولة «الحكومة» بشكل صريح فتأخذ المرأة دور الحكومة (رمزيا طبعا) ثم ينهال عليها المحبطون بسيل من الاتهامات، مثل «**تخون تنحب**» «**سايبة ولفيتها**» وكلها تعابير عن حالات احباط مستديمة بسبب انقطاع التيار الكهربائي، والزحامات الشديدة واغلاق الطرق بالحواجز الكونكريتية ونقاط التفتيش والتسيب الوظيفي، والفساد الاداري، والتردي الاخلاقي ومثلها كثير.

وبسبب الازمة المرورية في الشوارع والتدافع غير المنطقي والعجز عن ايجاد رادع اخلاقي للتغالب بواسطة توابيت الحديد التي تركض في الشوارع من غير هدى، صارت بعض الرموز قصدية ومباشرة اكثر

للطعن بسائقي المركبات عموما، وكأنهم جميعا مأخوذون بعبارة «**انتبه السائق مختل عقليا**» أو «**انتبه السائق احول**» بيد ان التعبير الرمزي هذا لم يشر الى درجة الحول ولا اي من العينين، التي يمكن ان نتجنب الجهة التي فيها الحول. الا اذا كان القصد انه احول بدرجة ٣٦٠، وعندها يتحول المجتمع بكامله الى نصف اعمى وبعكازين..

الوظيفة الاقتصادية

Economic Function

الشعارات والرموز الكتابية ذات الصبغة الاقتصادية كانت الاقل عددا، حيث تم حصر خمسة عبارات فقط، وهي جميعها ذات اهداف صريحة ومضمرة في ان واحد، فالعبارة التي تقول «**وراء كل رجل مفلس امرأة**» تعكس حقيقة صريحة ان المرأة غالبا تستحوذ على ما يحصل عليه الرجل من خلال كدحه اليومي وتتركه عاري القدمين ونظيف الجيوب، واغلب الرجال يمنحون زوجاتهم طوعا او كرها ما يحصلون عليه من أموال، ولكن ذلك يتعارض مع الاهداف الصريحة للسلطة التي نستشعرها في الاحاديث العامة والعلاقات والتفاعلات اليومية، وهي من جهة تعبير صريح عن فقدان الرجال بعضا من سلطاتهم العائلية التي غالبا ما تترافق مع فقدان العائد المادي.

بيد ان المرأة كما اشرنا في المفصل السابق يمكن ان تكون تعبيرا رمزيا لسلطة الدولة التي اوشكت او توشك على الافلاس دون ان تنجز اي مشروع ذي فائدة للمجتمع، مما تثير سخط الناس الذين لا

يستطيعون مهاجمتها بشكل مباشر لما يترتب على ذلك من مخاطر، ولذلك تتخذ المرأة كرمز يسهل مهاجمته دون ان يتعرض المهاجم لمخاطر سخط الحكومة، ولذلك يقول احدهم في تعبير آخر «**افول باستكان على عناد ابو البهبهان**» والبهبهان سيارات فارهة تستهلك كميات كبيرة من الوقود مقارنة بسيارة مثل «Sipa» التي لا يتجاوز حجم محركها cc1.4 وهو تعبير ساخر عن الفرق في مساحة «الرفاهية» بين من لديه ثلاث او اربع او عشر سيارات ذات محرك مؤلف من ثمانية سلندر، وسيارة صغيرة جدا بثلاثة سلندر لا تستهلك ثلاثة اعشار ما تستهلكه «البهبهان» ولعلها تنطوي على إشارة لحجم ومكانة كبار اللصوص الذين وجدوا لأنفسهم مكانة مرموقة في نظام اجتماعي تبدلت فيه منظومة القيم تبدلا خطيرا.

ثم يتدرج التعبير الساخر الى درجة اقل حده ولكنه مازال يعكس درجة من عدم الرضى في قول احدهم «**كية مزيونة ولا ستاركس مديونة**» وعدم الرضا هذا اقرب الى القناعة منه الى السخط ولكن السخط يأخذ شكلا مباشرا جدا بقول احدهم: «**من جد وجد ومن تخرج قعد**» حيث تجد عشرة اجيال من خريجي الجامعات الشباب بلا فرصة عمل، واقصى ما يستطيع احدهم ان يفعله ان يعمل اجيرا في محل لبيع الفلافل او الملابس الجاهزة او في دكاكين العطارين التي صارت اكثر من عدد الرمل والحصى. اما المعامل والمصانع، والمزارع والمؤسسات الانتاجية فقد اغلقت ابوابها قصديا لكي يبقى شباب هذا البلد واهله افواها مفتوحة مستهلكة فقط لا تنتج ما تأكل ولا تلبس ما تصنع ولا تجد

فرصة غير الانتماء للأجهزة الأمنية او الهروب الى الخارج، او الانتماء لعصابات اجرامية لا احد يدري من اين جاءت ولا كيف تكونت.

الوظيفة الدينية

Religious Function

الشعارات والرموز الدينية التي احصرت بلغت خمسة عشر (١٥) منها تسعة يستعين فيها اصحاب سيارات النقل العام بلفظ الجلالة لحمايتهم «**يا رب سترك**» او حفظ سياراتهم «**اللهم احفظها واحفظ من فيها**» وهي تتكرر بكثرة على معظم سيارات النقل وكلما ازدادت الشعارات الدينية كلما عكست حالة من عدم الشعور بالأمن، وعندما تختل موازيين العلاقات الاجتماعية ويحل الخوف محل الامن والمجهول محل المعلوم، والعشيرة محل الدولة، والغابة محل المدينة، سوف يزداد اللجوء للقوى الغيبية، ليس من باب التدين بوعي تام او بعلاقة هادئة بين الانسان والسماء، ولكن تحت التهديد يعود الانسان الى اصله البدائي الذي اخترع المعبد والمقدس والطوطم ليحتمي به عندما لا يجد من يحميه. من الشعارات الدينية الساخرة والتي تستلزم التوقف عندها «**بر الوالدين اهم من امك وابوك**» وهذا النوع من السخرية يجعل قواعد الاخلاق العامة عرضة للاستهزاء، كما يؤكد تضاؤل الفضائل التي يستبطنها الناس والتي يمكن ان تكون جزء من منظومة القيم التي تم الاعتداء عليها بهمجية واخضاعها لناموس الفوضى عمدا.

وتنتشر هذه الايام العبارات الدينية والآيات القرآنية بطريقة مثيرة

جدا على واجهات المنازل والمحال التجارية، واغلبها اعتقادا بأنها ضد «العين الشريرة» او الحسد. مثل «**ما شاء الله لا قوة الا بالله**» والبسملة، وآيات مقاربة اخرى لا يكاد يخلو منزل تم بناؤه حديثا من هذه الآيات، وهي في الواقع ليست من باب الايمان العقائدي، ولو كان الامر كذلك لكان الاولى للناس ان يتمثلوا قواعد الدين الأساسية، في سلوكهم وليس على واجهات منازلهم، بيد ان اغلب هؤلاء يحلفون اغلظ الايمان كذبا وينافقون ويغتابون بعضهم البعض، ويتحاسدون، ويتنابزون بالألقاب وهذه الصفات كلها عكس ما جاء به الدين الذي يدعو لإتمام مكارم الاخلاق. ان تراجع القيم كل القيم وليست الدينية وحدها، هو اتجاه ناتج عن تفكك المجتمع وانتحاره معياريا.

الوظيفة السياسية

Political Function

تحتل الوظيفة السياسية المرتبة الاولى من بين كل الوظائف التي اشرنا لها، هذا اذا اخذنا في الاعتبار ان الوظائف الأخرى، الاجتماعية والاقتصادية او الدينية او النفسية تنطوي على اهداف سياسية مضرة، ومع ان عدد الشعارات السياسية او تلك التي توحي رمزيا بأهداف سياسية كانت قد بلغت ٢١ احدى وعشرون، فإنها ولا شك رقما كبيرا، ورغم ان هذه الرموز ذات طبيعة مضمرة فإنها تبدو موجعة، كما تبدو اشبه بإعلان فاضح مبطن ضد قوى سياسية نافذة، فمثلا الشعار الذي يقول «لا تصاحب شمس وتزعل الليل، لان تشبع مذلة بوكت الغروب» هذه

المقولة وان كان اغلب الناس لا يفهمون المغزى منها الا في ضوء تعارض الاضداد شعريا (شمس وليل، ومغرب) وما عساك تفعل عندما تعقد صفقة صداقة مع الشمس والليل، ضد المغرب، والمغرب قوة فاعلة على الساحة السياسية ولها ميليشيات وادوات قتل على الارض مثل الشمس ومثل الليل، وعليه فأن الدعوة في مثل هذه الشعيرة الرمزية، هي ان لا تغفل طرف او تنتصر لطرف على حساب اخر لان ذلك سيقود الى الحاق الاذى بالكل، هل هذه بالضبط هي الرسالة ام انها تحذير جماهيري ضد التمايز الطائفي والعرقي... وان لم تكن كذلك فهي مزحة ثقيلة، تستخدم السكاكين والخناجر التي لا يستلزمها المزاح.

معظم الشعارات الرمزية الاخرى ذات ابعاد مباشرة مثل «**احترامي للحرامي**» «**الا طحين**» «**اني جرحي علج والعالم سنون**» وهي ذات طبيعة عمومية، ولكنها تنال من الوضع السياسي القائم على التناحر والتباغض والتباعد، والتي لا تزال تعمق جرح الوطن النازف بشدة منذ اجتهادات « بريمر» في سياسية التدمير المنظم، الى الاطراف السياسية التي تحث الخطى باتجاه تعميق سياسة الخراب واستمراريته حتى اخر نقطة في كأس السم.

الوظيفة النفسية - العاطفية

Psycho-emotional Function

لم يبق الا الوظيفة النفسية لبعض الشعارات وهي احصائيا اقلها عددا «١١» احدى عشر شعارا، في معظمها احساس بالفشل والخذلان،

مدرسيا او عاطفيا، فالثالث متوسط مثلا كان وما يزال (لدرجة اقل) عقدة اغلب التلاميذ، ولذلك الشعار يقول ثالث متوسط (طالق بالثلاثة)، واذا كانت الرسالة تشير إلى ان الثالث متوسط عقدة العقد في كل المراحل الدراسية فربما كان المقصود فيها انها لم تعد كذلك وصار بمقدور اي واحد حتى الذين لا يجيدون القراءة والكتابة ان يعبروا هذه العقبة المدرسية المهمة، بدور ثالث او بدور رابع او بالغش او بالوساطة او..او.. او، فكل شيء في مجتمع الفوضى جائز، وكل شيء ممكن بقدر وغير ممكن بقدر. ومن الشعور بالخذلان من اشياء اخرى ربما سوء الخدمات، ربما التعامل السيء في انجاز معاملات الناس، ربما لسوء طالع بعض الافراد في انهم يسكنون على مقربة من صخرة «عبعوب» «وهي بالمناسبة صخرة جميلة ولكنها ضحية الاعلام السيء»، او ربما فشل في علاقة عاطفية، يقول الشعار «**حتى هدف حياتي طلع تسلل**» وهو تعبير جميل في التورية التي يحتويها، وربما تحول الشعور بالخذلان الى شعور بالخيبة واللاجدوى والغثيان، مثل الغثيان الذي كان يحس به ابطال البير كامو في رواية الغريب، فيقول الشعار «**دايخ في عالم بايخ**» او «**رميت همومي في البحر، طلع السمك يلطم**» احساس بالمرارة اقل ما يقال عنه ان الناس، لم تعد لديهم امال كبيرة، الكل وصل الى مرحلة اليأس، بعد انتظار طويل لمنقذ لم يأت، ويبدو انه لن يأت ابدا، وهذا اليأس هو الذي خلق لدى الناس احساس بالغرق في بركة لا يغرق فيها احد. احساس بالذبح بدون سكين، مع رغبة بالفرار خارج الزمان والمكان.

خلاصة Conclusion

اول شيء يتعلمه التلميذ في المدرسة هو كيف يكتب اسمه واسم ابيه بحروف صغيرة يحفظها عن ظهر قلب ثم يكتبها على دفاتره المدرسية بكل الألوان، انها تجربة مبهرة ليس للتلميذ وحده بل لأبويه أيضا، وبمثل هذه التجربة تفوق اطفالنا على ارقى المخلوقات في المملكة الحيوانية.. انها تجربة استخدام الرموز والمناورة بها. واذا كانت الرموز مفيدة في تسهيل عملية التفاعل الاجتماعي، فأنها تعمل كالسحر في نقل الخبرات والمعارف من جيل الى اخر وحفظها في الذاكرة الاجتماعية لتكون اداة توصيل وتواصل بين الماضي والحاضر وهو ما لا يتيسر لغيرنا من الاحياء

بيد ان الرموز في زمن الغثيان والهذيان والتناحر والتبعثر لها اكثر من وظيفة، كما اظهرت النتائج، خاصة تلك التي وجدت مكتوبة على واجهات وجوانب وسائل النقل العام، فإلى جانب انها تعبر عن حاجات الناس المعلنة فإنها تعبر ايضا عن حاجاتهم التي يصعب الاعلان عنها كتلك التي تأتي متلازمه مع الاحباط والاخفاق والشعور بالخذلان، تلك المشاعر التي تنمو وتتكاثر مع التبعثر الاجتماعي والتشرذم القيمي والتردي الاخلاقي، والتي تزداد شراهة مع غياب الامن والتضامن والتراحم. وباختصار انها تشبه حفلة راقصة مع اكلة لحوم البشر. في مثل هذه الاجواء ليس امام الناس الا استخدام الرموز (والكتابة حصرا) على هيئة منشورات علنية تملك في طياتها كل مقومات المنشورات السرية التي كانت تقود الناس الى السجون...

والرموز او المنشورات السرية – العلنية التي عملنا على جمعها

وتحليلها كانت ذات طبيعة اجتماعية ـ سياسية، اقتصادية. سياسية وسياسية سياسية، ذلك انه عندما يعجز الناس عن تحقيق اهدافهم بصورة مباشرة لخوف او عجز او قصور فأنهم يقفزون من النوافذ او يستخدمون السلالم الخلفية كبديل من رقابة الرقيب وصرامة الحسيب.

هذه النتيجة العامة لا تغني ابدا عن قراءة النص الذي فسرنا فيه خوف الخائفين وجرأة الشجعان وبلاغة الاقاويل.

الإحباط الاجتماعي: مع إشارة خاصة للشباب العراقي

Social Frustration: Special Reference to Iraqi Youth

قال طاووس لسليمان ابن عبدالملك: أتدري يا أمير المؤمنين من هو أشد الناس عذابا يوم القيامة؟ قال من؟ قال: رجل أشركه اللّه في ملكه فجار في حكمه.

الصورة البائسة

The miserable image

احد اشكال الخراب انك ترى في المدينة المقطعة الاوصال حواجز كونكريتية، اسلاك شائكة، نقاط تفتيش، نظام مروري معطل الى اشعار اخر، مظاهر مسلحة عند مفترق الطرق والجسور والساحات العامة، في الازقة وقرب المدارس والمساجد والكنائس والاسواق تحت اسرة نومنا وفي سراويل ابناءنا. هذا كله يحدث بالترافق مع مئات القنوات الفضائية التي تسعى جميعا لتعميق التخندق الطائفي بين الاخوة الذين كانوا حتى امس القريب يأكلون في صحن واحد وينامون على وسادة واحدة. عتاة جاءوا من خلف الحدود ليقدموا لنا درسا في الارهاب الديني والعرقي والطائفي في جلباب الرحمة وفي ايديهم اسلحة لا تنالها الدول بدعم من الاخوة الاعداء الذين باعوا الدم والضمير.

والى جانب كل هذه المحبطات، دولة مشرفة على الافلاس تعطلت فيها وسائل الانتاج وقوى الانتاج معا، دولة تحارب الوهم بسيوف عمياء وهي تعرف سر الخراب الذي طال النفوس ولكنها لا تستطيع ان تفعل شيئا لأنها دولة محاطة باللصوص وانصاف اللصوص واشباه اللصوص، دولة مكبلة بقوانين مدن الطوائف التي ستضعنا ليس فقط خارج التاريخ بل خارج الجغرافية ايضا ولعلنا سنتحول عما قريب الى كائنات منقرضة.

هذه الصورة البائسة المحبطة هي اخطر امراضنا الاجتماعية المتوطنة، لها جذور موغلة في القدم تعود الى السومريين والبابليين والاشوريين الذين كانوا يشعرون بالتهديد الدائم من الالهة التي تغير اتجاهاتها نحوهم لمجرد الهوى او عندما تشعر الالهة ان الملوك لا يؤدون ما عليهم من التزامات تجاه الكهنة وبغايا المعابد او ينحازون لإناث الالهة دون غيرها، وفيما عدا ذلك فان الالهة لا تكترث عندما يبطش الملوك بمواطنيهم او يفرضون عليهم الضرائب الثقيلة او يتعاملون معهم كالبهائم. ثم توالت موجات الاحساس بالقهر والذل والانكسار وبالتالي الاحباط على نطاق واسع عبر القرون كان للناس فيها مكانة اقل من مكانة الاقنان في عصور الاقطاع. حالة احباط عابرة للقرون انتهت بجيش الانكشارية الذي لم يمارس الاقصاء فقط بل الاخصاء ايضا

صورة شاحبة من وجهة نظر رجل محبط، صورة لا تشبه في هشاشتها دواخلنا السائبة التي صار لديها عسر هضم شديد من تسارع المدخلات التي ادت الى نحر الشخصية على مذبح جنازير الغزاة التي اجهزت على ما تبقى من فضائل الشخصية العراقية.

اعترف ان الغزاة على مر التاريخ كان لهم اليد الطولى في ارباك البنية الاساسية للمجتمع العراقي، والاحداث التي توالت عبر القرون، من تحامل الآلهة الى تعاقب الفرس والترك القادمين من اراضي طاردة للسكان الى سهل الرافدين الجاذب للسكان، الى القرويين الذين حكموا العراق في القرن الاخير والذين نقلوا القيم الريفية والبدوية المتراخية الى المراكز الحضرية، والذين حصنوا انفسهم خلف المتاريس والاسلاك الشائكة والكلاب المدربة على اكل لحوم البشر، هؤلاء جميعا ساهموا في خلق شخصية محبطة مقهورة مهانة مذلة لا تحصل على رغيف الخبز الا تحت السياط، واذا حاولوا ولو محاولة للمعارضة فان مصيرهم اما الى القبور مباشرة او يجدون طريقهم الى الاقبية السرية التي تفننت الحكومات الوطنية جدا في بناءها فوق الارض وتحت الارض. شخصية محبطة ولكنها كانت تستعصي على التدجين، ومع ان شخصية من هذا النوع لا يتوقع منها الكثير لأنها اصلا ليس لديها حتى القليل، ويتعين عليها ان تسكت وتلعق جراحها وتعبر عن نفسها همسا.

الغزاة هذه المرة كانوا اكثر حنكة من سابقيهم لسببن الاول انهم جاؤوا ومعهم سياسيين من بقية اهلنا قضوا نصف حياتهم متسكعين على الارصفة ولديهم سجلات مشينة تجعلهم تحت التهديد فهم اقرب للدمى منهم لرجال دولة، وبسبب بقاءهم تحت التهديد صار همهم الاول ان يقطعوا لحم اطفالنا ليطعموا اطفالهم الذين حصنوهم بعيدا في المنافي والمباغي والقبور فاهملوا البلاد والعباد وفتحوا الباب للنهب وصاروا ينهبون مع الناهبين. والثاني انهم وجهوا الجماعات الاكثر

احباطا من اهلنا الذين دربوهم في داخل اقبيتهم السرية على معتقدات دينية ميتافيزيقية ليخلقوا مناخا للتناحر الابدي بدعاوى طائفية وعرقية ومذهبية، لكي يتم نحر الشخصية العراقية مرة والى الابد. وكان من نتيجة ذلك ان يبقى المجتمع العراقي تحت الحراب الى اجل غير مسمى يذبح فيه الناس بعضهم بعضا، وحتى يحين موعد يقظتهم من اللعبة الماجنة التي يلعبونها مع بعضهم تكون السكاكين الصدئة وكواتم الصوت والعبوات الناسفة قد اعادتهم الى عصر الكهوف، وتكون الشخصية العراقية ليست محبطة فقط وانما مسخا لا شكل له. ولان الإحباط يدخل في نسيج فرعين من فروع المعرفة، فيبدو وكأننا سندخل في نزاع غير محسوب النتائج مع علم النفس الذي يحتكر مفهوم «الاحباط» ويعتبره من ممتلكاته الخاصة التي لا يتنازل عنها بسهولة، واذا فشلت كل الوساطات لتقريب البعيد، عندئذ سيكون من حقنا ان نمارس سياسة السطو على احفاد ماكدوكال وبافلوف وفرويد.

ومهما كانت دفاعات اهل علم النفس متينة فان الاحباط المتحول جبرا من الفرد الى الجماعة سينتقل بالضرورة الى ميدان علم الاجتماع الذي سيكفل له الملاذ الامن ويجعله من المقربين المعول عليهم في تحليل وتفسير العديد من المظاهر ذات العلاقة، فهل نستطيع ان نصنع جسرا عابرا للقارات بين علمي النفس والاجتماع لكي لا نضطر ان نجعل الخصومة العابرة حربا مفتوحة من اجل مفهوم نحتاجه معا لتفسير سلوكنا افرادا وجماعات. واذا كنا سنقف على ارض مشتركة من دون حساسيات مكلفة ومن دون نزوع نرجسي، استحواذي، احتكاري، فان

عملية تكامل رائعة ستخلق لنا عالما اكثر شمولية في التحليل والتفسير. وعلى افتراض اننا ولدنا من رحم واحدة وان اواصر الدم وعوامل الكينونة والديمومة ستكفل لنا التقارب اكثر من التباعد، فإننا سنفترض معا الفرضية التالية:

«ان الاحباط ليس حالة فردية بالمعنى الشخصي
وانها ليست اجتماعية بمعنى حاصل جمع مدركات الافراد»

هذه الفرضية تعني ان الاحباط يمكن ان يكون فرديا عندما يواجه الفرد مازقا في تحقيق هدف واجتماعيا عندما تكون الاهداف المشتركة للجماعة مغلقة الابواب، وهنا يجب ان نعترف ان ظروف الحياة المعقدة وخصوصا في مجتمع تتوالد فيه الازمات مثلما تتوالد السلاحف فان مثل هذه الظروف الضاغطة بشدة تضعنا حتما تحت وطأه التوتر، ومع ان لدينا مخارج كثيرة لتخطي المشكلات المسببة للتوتر الا ان دوافعنا لا يمكن اشباعها بسهولة دائما، فهناك عقبات ينبغي تخطيها وعجز يتعين تجاوزه وخيارات يجب ان تحسم. وفي مثل هذه الظروف فان مطالبنا حتى المتواضعة منها تحتاج الى وقت طويل لتحقيقها، وهذا التأخير قد يقود الى الاحباط.

ولان الشباب اكثر شرائح المجتمع كما ونوعا فان الاحباط الذي يتهددهم يأخذ بعدا تدميريا اكبر عندما يتحول من حالة عابرة الى خيبة امل ومن حالة مؤقتة الى ظاهرة مستديمة ميؤوس من اصلاحها، وفي اجواء كهذه يستشعر الاحباط كاملا بمرارة تفوق التصور وتترك

ندوبا حادة على النفوس المزحومة بالقلق والخوف والانتظار. ولأننا اخترنا الوقوف على الاسباب الظاهرة للإحباط لدى الشباب، والنتائج المترتبة عليها في مجتمعنا العراقي الذي تتناسل فيه الازمات كما تتناسل جرذان الحقول وتتراكم فيه العوامل المسببة للإحباط كما تتراكم الغيوم في الشتاءات الباردة فتقود الى نتائج من شانها احداث شلل تام يهدد بناء المجتمع ككل، فإننا سننقاد بما يشبه التنويم المغناطيسي نحو هذا الهدف.

ولتحقيق هذا الهدف ربما نحتاج ان نسلك طريقا سلكه اخرون قبلنا، او لعلنا نسلك طريقا لم يسبقنا اليه احد، والطريق الذي لم يسلكه احد قد يمنحنا نوعا من التفرد ولكنه طريق محفوف بالمخاطر، وفي العلم لا تصلح المغامرة اذا كان هناك طريقا كان قد سبقنا الى اكتشافه اخرون وعلى كل حال فإننا غالبا ما نستمد معلوماتنا عن الحياة الاجتماعية بمشكلاتها وظواهرها المختلفة من الملاحظة المنظمة المباشرة عن قرب او بالمشاركة او عن طريق وسيط مثل «وسائل الاتصال» وهي طريقة تستخدم على نطاق واسع في العلوم الاجتماعية ولكنها تحتاج الى معيار محدد لإثبات صدقية المعلومات (Borg ٢٣٧:١٩٦٣)

وفي هذا السياق يقول (Bilton et al ٢٠٠٢) ان الملاحظة القريبة للفعل الاجتماعي، او حتى الملاحظة بالمشاركة غالبا ما تكون طريقة مفضلة في البحوث التفسيرية. ومن هنا كان استخدام طريقة الملاحظة كأداة للحصول على المعلومات الى جانب الادبيات السوسيوسيكولوجية التي استخدمت كاطار معرفي للتفسير.

طبيعة الاحباط

Frustration Nature

حالة الاحباط هي الحالة التي تكون فيها الطريق المباشرة نحو الهدف مسدودة او بطيئة او يتخللها عائق عارض. علماء النفس يصفون الاحباط على انه النتيجة المباشرة للعجز عن تحقيق الهدف، والاحباط حالة عاطفية غير مريحة.

وللإحباط عوامل داخلية، كفقدان الثقة بالنفس او الخوف من موقف اجتماعي او التناشز المعرفي. وعوامل خارجية لا سلطة للفرد عليها (وهي ما تهمنا في هذه الدراسة) مثل اغلاق طريق او مهمة صعبة او تأخير مقصود بسبب الروتين وغياب النظام (Gergen & Gergen ١٩٨١).

النتائج المباشرة للإحباط

Direct Frustration Consequences

للإحباط نتائج انية واخرى مؤجلة، فعندما يكون الطريق لتحقيق الهدف مغلقا فربما يكون رد الفعل انيا، وربما يتبلور اتجاه طويل الامد نحو عدم الاستقرار النفسي وربما يقود الى المخاطرة او العدوانية في السلوك، وهذه نتائج قد تستمر طويلا وربما تلازم بناء الشخصية.

ان النتائج الانية للإحباط يسميها علماء النفس «علامات الاحباط» ففي تجربة اجراها عالم النفس هلكارد Hilgard (١٩٦٢) عن مجموعة من الاطفال في مرحلة رياض الاطفال، كشفت التجربة بوضوح علامات الاحباط، حيث وضع هؤلاء الاطفال في غرفة تحتوي على مجموعة

كبيرة من الالعاب الناقصة؛ كرسي بدون منضدة، خشبة مكوى بدون مكوى، تلفون من غير اسلاك ومن دون حرارة ولا نغمات، وزوارق من غير ماء. بعض الاطفال بدأوا يلعبون بحماس وسعادة ثم بدأوا يعوضون الاجزاء المفقودة من الالعاب بحركات تخيلية، مجموعة اخرى من نفس الفئة العمرية ومن خلفيات اجتماعية - اقتصادية متشابهة، ولكنهم لم يتمكنوا من اللعب بطريقة بناءة كما فعل نظرائهم في المجموعة الاولى. لقد تعاملت المجموعة الثانية مع الالعاب بطريقة خشنة. والسبب يعود الى ان المجموعة الثانية التي اظهرت «علامات الاحباط» كانت قد ادخلت في نهاية التجربة وانها وضعت في موقف قصدي لاستثارة الاحباط، حيث ترافق مع دخولهم ان رفعت ستارة كانت تفصل غرفتهم عن الغرفة المجاورة التي كانت تعج بالألعاب الكاملة. وعندما لوحظ ان اطفال المجموعة الثانية بدا عليهم الاستياء حالوا بينهم وبين الغرفة المجاورة بان اعادوا اسدال الستارة مرة اخرى لذلك كان تصرفهم بطريقة «محبطة».

هذه التجربة اوضحت النتائج الانية للإحباط، فاذا اخذنا هذه التجربة على الحالة العراقية، سوف نكتشف عناصر الاحباط، خيبة الامل، وفقدان الرؤية الواضحة لما ستؤول اليه الامور. فالعراقي بسبب وسائل التواصل الاجتماعي بات بمقدوره ان يقارن غرفته (البلد) بالغرف المجاورة (البلدان المجاورة) وربما بالغرف الابعد، فلا يرى فيها وضعا امنيا متردیا بدون امل في تحسنه، كما لا يجد عوائق كونكريتية تغلق الشوارع، ولا زحامات شديدة قد تتطلب منه الانتظار ساعات لكي

يقطع شارعا طوله مئة متر، وليس هناك تيار كهربائي ينقطع على الدوام، بينما يجد في الغرفة المجاورة اماكن ترفيه وبيئة نظيفة وشوارع معبدة ونظام مرور يعمل الكترونيا وتعامل انساني في دوائر الدولة، وتنظيم دقيق للتجارة والصناعة وطرز البناء، كل هذه المظاهر تبعث على الاحباط. ولولا اننا تعلمنا الصدمات وتعايشنا معها لقادتنا الحالة ليس الى الاحباط بل الى الجنون، وعلى كل حال فأن علامات الاحباط هذه قادت الناس لان يثوروا ضد بعضهم البعض لأبسط الاسباب، يحتالون على بعضهم، يحلفون اغلظ الايمان كذبا او حتى ان البعض يبيعون ضمائرهم بأرخص الاثمان، وهذه الحالة تسمى في علم النفس «الحالة التدميرية للإحباط» وتتمثل بالاعتداء بطريقة عدوانية، رمي الازبال في الشوارع والاماكن العامة، تدمير محولات الطاقة الكهربائية وسرقة الاسلاك واعمدة التلغراف وتكسير علامات السير والاعتداء اللفظي على رموز السلطة المسببة للإحباط، عدم الاهتمام بنوعية الدواء والبضائع بشكل عام، وكلما ازدادت حدة الاحباط كلما ازدادت القوة التدميرية للأفراد تجاه الرموز المسببة للإحباط متمثلة بالممتلكات العامة والمال العام ورموز السلطة.

العدوان المباشر

Direct Aggression

العدوان المباشر هو احدى نتائج الاحباط، والعدوان يأخذ اشكالا متنوعة منها ما هو لفظي، كما في الهياج في الشارع عند احتكاك سيارة

بأخرى، حيث يحتدم الصراع اللفظي بطريق الاستثارة العاطفية من خلال السباب والشتائم، وقد يتطور الى التشابك بالأيدي واحيانا بالأسلحة. وما لم تتوفر عناصر الاحباط التي تستثير حالة التوتر لدى الافراد، فانهم غالبا لا يلجؤون للتقاتل المميت من اجل شيء تافه (Penningto ١٩٩٣) لانهم عندئذ سيفكرون بالقانون والنظام، اما اذا فقدت هذه فان الفرد عندها سيتكأ على العشيرة التي اخذت دور الدولة وهي كفيلة بحمايته.

وقد يأخذ العدوان اشكالا رمزية مثل حركات اليد ونبرة الصوت او يأخذ شكل النكتة والشائعة والطرفة وافلام الفيديو الساخرة، فمثلا يتردد في الشارع هذه الايام ان رواتب الموظفين ستكون كل اربعين يوما بدل ثلاثين وهذه الشائعة مكملة لشائعة سبقتها تقول ان الرواتب سوف تتقلص وكلاهما تستهدفان اثارة التوتر وعدم الاستقرار النفسي لدى شريحة مهمة من شرائح المجتمع وتنعكس على مفاصل النشاط الاقتصادي والاجتماعي بكامله. اختفت هذه الشائعة مباشرة بعد ان خرج رئيس الوزراء في التلفزيون وتحدث عن مشكلة الرواتب. ولولا ذلك لاستفحلت الشائعة وتركت اثارا لا تحمد عقباها.

كما ان بعض الافعال تعبر رمزيا عن الاحباط كقول احدهم « ان قرارا سيصدر قريبا يكون بمقتضاه من حق الرجل تبديل زوجته كل اربع سنين بدل البقاء معها الى الابد » وليس المقصود بهذا المرأة بذاتها بل لعله ترميز للحكومة او احد مصادر القوة فيها وهذه تسمى في علم

النفس العدوانية المزاحة displaced aggression حيث ان الفرد المحبط لا يستطيع ان يوجه عدوانيته مباشرة نحو مصدر الاحباط، اما لأنها بمنأى أو غير ملموسة ولهذا يشعر الفرد بالغضب ويوجه عدوانيته نحو هدف اخر يشير له رمزيا، واحيانا المصدر المثير للإحباط ذو سلطة او نفوذ سياسي او اجتماعي لذلك فان مهاجمته بشكل مباشر تعتبر خطرا، وعندما تحول الظروف دون الهجوم المباشر على المصدر المسبب للإحباط فان النتيجة هي التحول نحو الرمزية التي تغلف العدوانية بتعابير ذات دلالة وحسب، وهي ما نسميها « العدوانية المزاحة «

لقد اجرى علماء النفس الغربيون تجاربهم على الحيوانات وصارت معظم تطبيقاتها على الشعوب الاقل تحضرا ومنها نحن، فمثلا « العدوانية المزاحة « كما يقول احد علماء النفس يمكن اثباتها تجريبيا على الحيوانات وعلى البشر، ومن ذلك ان تجربة اجريت على جرذ قام العالم بتشجيعه على مهاجمة جرذ اخر والا تعرض لصدمة كهربائية، فاذا هاجم الجرذ الاخر اعطي مكافاة بان يتوقف عنه التيار الكهربائي واذا توقف عن مهاجمته تعرض لصدمة كهربائية، وعندما اختفى الجرذ الاخر» الضحية « فان الجرذ الذي تدرب على العدوان وجه عدوانه نحو هدف اخر «دمية على شكل جرذ وضعت جانبا» (Hilgard ١٩٦٢).

ومثل هذه التجربة كان لها تطبيقات في العراق حيث يعطى شخص محبط ومحتاج مئة دولار ومهمته ان يركن سيارة مفخخة في مكان مزدحم، سوق، عرس، مأتم، مسجد، حسينية، وبعد المكافاة التي يستلمها في مهمة سهلة يكلف بمهام اكبر وبمكافاة اكبر. واذا انتهت

مهمته فانه على استعداد لان يوجه عدوانيته نحو اهداف بريئة بمكافاة او بدون مكافاة.

اللامبالاة Apathy

احدى الملامح المحيرة للسلوك الانساني، هي النزعة الى السلوك المعاكس تماما – في المواقف المتشابهة – فبينما تكون الاستجابة الطبيعية للإحباط بعدوان فعال، هناك من يتصرف على العكس، لامبالاة، عدم اهتمام، انسحابية، خمول او تكاسل، اهمال. فعندما تكون المقاومة عديمة الجدوى، فان الشخص المحبط ربما يكون حزين او متجهم بدل ان يكون غاضب او متحدي، واللامبالاة غالبا تشير الى النزعة العدوانية المثبطة، ولكن يمكن التعبير عنها بشكل غير مباشر، (Hogg &Vaughan ٢٠٠٥) ومن الامثلة الواضحة في حياتنا اليومية ان الاغلبية الشعبية صامتة، كل يقول « لا دخل لي « «الامر لا يعنيني « وكأن الذي يحدث في بلادنا يحدث في كوكب اخر، اما لانهم استيأسوا من الاصلاح او لانهم يدركون ان صدى اصواتهم لاتصل الى اذان المسؤولين عن الاحباط، فأراحوا واستراحوا باللامبالاة، ولكنك غالبا تستطيع ان تقرا الحزن والقلق والخوف على وجوههم.

النمطية (الرتابة) Stereotypy

من النتائج الاخرى للإحباط، النمطية في السلوك، وهذه تعني الميل الى التمويه او التعمية blinding «يعطيك الاذن الطرشة، او

العين العمية» بينما يستمر سلوكهم ثابتا متكررا، وحل المشكلات لديهم اعتيادي مع المرونة اللازمة، ويقوم هؤلاء عادة بتسديد ضرباتهم باتجاه اخر عندما يكون الطريق الطبيعي لتحقيق الهدف مغلقاً (Gergen & Gergen ١٩٨١)، وعندما يتكرر الاحباط ويربك الشخص، خصوصا عندما يحدث الاحباط نتيجة عقوبة، فان بعض المرونة سوف تفتقد، ولكن الشخص يعود بعد حين الى نفس السلوك الرتيب عديم الجدوى مرة واخرى، وعندما يتبنى الفرد السلوك الرتيب يصبح من الصعب تغييره. لقد اجريت تجارب بهذا الخصوص على الفئران ثم قالوا ان لها ما يماثلها عند الانسان، فمثلا مص الاصابع في الطفولة والتأتأة ربما تصبح اكثر ثباتا بسبب العقوبة والاحباط المتأتي من الجهود المبذولة للتخلص منها، وقد تفسر بعض الصعوبات في تعلم الرياضيات والقراءة والتلفظ عند بعض الاطفال اللامعين كنتيجة للأخطاء الرتيبة في فترة احباط مبكرة، كما يمكن ملاحظة الاحباط على استجابات الناس في الاسواق وفي وسائط النقل العامة عندما تمزح مع احدهم فيشيح بوجهه عنك او يعطيك الاذن الطرشة، وهكذا ايضا تجرى التجارب على الفئران ثم ترسل الينا للتطبيق، حيث تجد ان سلوك كثير من الناس لدينا رتيب وآراؤهم جامدة ومتكررة بطريقة تبعث على السأم والاحباط

الانحدار Regression

الانحدار هو العودة الى السلوك البدائي، سلوك مماثل لسلوك الاطفال، وهناك تفسيرين للانحدار، الاول، هو ان الانسان وسط عدم

الشعور بالأمن يسعى للعودة الى فترة الماضي الامن، وهذا السلوك يسمى السلوك المنتكس Retrogressive، والفرد فيه يعود ليتصرف وكانه في الثانية او الثالثة من عمره. اما التفسير الثاني فان السلوك الطفولي ينتج عن الاحباط، وهو سلوك اكثر بدائية في نوعه، انه ليس العودة الى السلوك الطفولي القديم، وهو مناقض تماما للسلوك المنتكس ويطلق عليه « السلوك البدائي.« primitivation وفي ذلك يفقد الانسان سلوكه المتحضر، وقد يلجا الى استخدام قبضة اليد في مناقشة عادية حتى لو لم يكن قد استخدم يده ابدا في حياته. كلا شكلي الانحدار ربما تستخدم عندما يتعرض الانسان للإحباط. (Hogg & Vaughan ٢٠٠٥)

الانحدار في السلوك يظهر جليا في سلوكنا في الشارع، في المدرسة والجامعة وفي كل مرافق الحياة، فالإنسان المحبط يستثار بسرعة، وبالسرعة ذاتها يتخلى عن سلوكه المتحضر ويشتبك في عراك بالأيدي والاسنان وفي ذلك يقول استاذنا الوردي ان احدنا يبدو من الخارج (من ناحية المظهر) وكانه مستر جون، ويخفي في داخله الحاج عليوي بعقاله السميك

المشكلة الاساسية للنتائج المباشرة للإحباط، ان بعض اشكال الاحباط المرافقة للمشكلات الشخصية قد تدوم طويلا مختفية بين اللحم والعظم كما هو حال الحاج عليوي، والاحباط عندئذ يصبح عادة، وحينئذ تكون الشخصية على الاغلب عدوانية، تعيش في احلام، ذات طبيعة شكاكة، وهذه المظاهر يستخدمها الفرد لمواجهة الاحباط الذي تأصل فيه. (Seeman ١٩٨١)

رد الفعل على الاحباط طويل الامد

Reaction to Prolonged Frustration

الدراسات التي اجريت على المعتقلين في معسكرات الاسر « سجناء الحرب « اكدت ان اللامبالاة او بمعناها الواسع « الكآبة « هي استجابة طبيعية للإحباط والظروف المؤلمة التي لا امل معها للهروب او التخلص من الاسر. ففي مواجهة الحرمان المستمر، التعذيب والتهديد بالموت، فان عدد كبير من السجناء « الاسرى « يصبحون منطوين على انفسهم، بلا عواطف، ويتعاملون بلامبالاة مع ما يدور حولهم. وفي مقابلات مع الجنود الامريكان الذين تخلصوا من معسكرات الاعتقال بعد الحرب الكورية- الامريكية اظهر معظمهم انهم عاشوا تللك الاجواء «عزلة، انطواء، لامبالاة ولا عواطف» في وقت ما اثناء الاعتقال. وفي الحالات الشديدة كان المعتقل ينكمش في فراشه بانتظار الموت، لا يقوم باي جهد ليأكل او يهتم بنفسه. ثم اشاروا الى ان هناك طريقتين لإنقاذ السجين المشرف على الموت، ايقافه على قدميه وقيامه باي عمل، ليس مهما ما هو العمل ومدى تفاهته، وجعله يهتم في بعض المشكلات الحاضرة والمستقبلية.

ان الاهتمام بردود افعال سجناء الحرب خلال الحرب الكورية قادت الجيش الى تطوير برنامج يهدف الى تهيئة المجندين للتغلب على الاحباط فيما لو وقعوا في الاسر. لقد استخدم هذا البرنامج بنجاح فيما بعد في الحرب الفيتنامية-الامريكية. معرفة كيف يحافظ السجين على قواه العقلية والبدنية تعمل بطريقة فعالة كأن يتبع جدولا يوميا للتمارين

الرياضية او يستمع لمحاضرات يلقيها سجين اخر، كما ان معرفة كيف ينظم السجناء انفسهم في الاحساس بالمسؤولية، دعم بعظهم البعض ووضع خطة للطوارئ عندما يشعر احدهم انه في حالة عجز تام. هؤلاء الرجال عادوا من الحرب افضل بكثير من اولئك الذين عادوا من الحرب الكورية والذين لم يتعلموا التعامل مع ظروف الاسر. (Hilgard ١٩٦٢).

الواقع اننا احرار، بلا اصفاد وبلا غرف مظلمة وبدون قضبان، ولكن ظروف الاحباط المتكررة يمكن ان تحوُّل بيوتنا المشيدة على احدث الطرز والمجهزة بأحدث وارقى وسائل الترفيه، الى قبور مظلمة تضيق بنا ونضيق بها، كما يمكن ان تتحول الاحباطات الى قضبان واصفاد غير مرئية لها وقع اليم اشد ايلاما بكثير من اصفاد السجانين وصفعاتهم.

الشباب العراقي والإحباط

The Iraqi Youth and Frustration

يقول لارسون (Larson ١٩٨٣) ان الشباب عند اغلب شعوب الارض يلقون عناية خاصة باعتبارهم القوة المنتجة الرئيسية التي تستلزم اعدادا مبرمجا ليس فقط على المستوى الاكاديمي والتربوي وانما ايضا على صعيد الصحة البدنية والنفسية، النمو الاجتماعي والعاطفي، التأهيل المهني واكتساب المهارات.

في الدول المتقدمة يطالب الشباب في السنتين الاخيرتين من الدراسة للثانوية بالقيام بأعمال تطوعية يطلق عليها خبرة العمل - work exp rience يقوم الشباب من خلالها بالعمل مجانا لأكثر من ١٢٠ ساعة

عمل تطوعي في مجالات يرغب فيها الطالب ومن خلالها ايضا يستطيع ان يتعرف على طبيعة الاعمال التي يمكن ان يمارسها في المستقبل او يتجنبها ان لم يتوافق معها، وهذا شرط من ضمن شروط القبول في الجامعات البريطانية.

الشباب في العراق مدللين الى اقصى الحدود، ليس مطلوبا منهم خبرة عمل كشرط للقبول في الجامعات وليس مطلوبا منهم ان يتقنوا لغتهم العربية كشرط للنجاح حيث يمكنهم ان يضعوا الفعل مكان الفاعل والمفعول به مكان المفعول فيه وان يتبادل الفاعل ونائبه الادوار. كما ان الشباب العراقي لا يحتاج ان يكتسب مهارات اثناء وبعد الدراسة الجامعية نظرا لانعدام المؤسسات التي تقوم بتقديم خدمات تطوعية لإكساب الشباب خبرات. وفوق هذا فان النظام الاقتصادي المتهرئ منذ عام ١٩٩٠حتى الان لا يستطيع استيعاب الاعداد المتزايدة للشباب كقوة عمل منتجة، والسبب ان المشاريع الاقتصادية التي كانت تستوعب اعدادا كبيرة من اليد العاملة وخريجي الجامعات والمعاهد لم يعد لها وجود او انها اندثرت او تفككت بقرار من سيء الصيت بريمر الذي فتح الباب للنهب «الفرهود» ومن ثم اهمال الدولة للمشاريع الاقتصادية الكبرى التي تحتاج الى اعادة تأهيل لأسباب لا يعلمها الا الله واحفاد بريمر. ومهما يكن فان هناك قوى خارجية واخرى داخلية تعمل للإبقاء على المؤسسات الانتاجية خارج قواعد اللعبة، يأكلها الصدأ لتباع في النهاية بمزادات سماسرة الخردة او تهدى للأخوة الحواسم مجانا وكل هذا من اجل ان يبقى الشباب خارج سوق العمل ليشكلوا ضغطا على الدولة

والمجتمع. والغاية النهائية لتعطيل المؤسسات الاقتصادية هو لإبقاء العراق بلدا مستهلكا بمعنى ادق مجتمع لا ينتج ما يأكل، واذا كانت الدولة في حالة حرب فهذا قطعا لا يبرر للحكومة ايقاف المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والخدمية فالشعوب التي خاضت حروبا كانت تقاتل بيد وتعمل بالأخرى، وهكذا نجد ان الانكليز مثلا في الحربين العالميتين كانوا قد استعانوا بقوة عمل المرأة لتحل محل الرجال الذين التحقوا بجبهات القتال، ولم تتوقف الحياة لانهم كانوا في حالة حرب، وكان النمو الاقتصادي قد ازدادت وتيرته اثناء الحرب لاستخدام سياسة تشغيلية قصوى (Giddens ١٩٨٩).

اكثر من عشرة اجيال من خريجي الجامعات والمعاهد الفنية مازال اكثر من ٩٥٪ منهم خارج سوق العمل، ومن دواعي الاحباط ان يوضع شباب العراق امام احد خيارين، اما الانضمام الى القوات الامنية اوالى مجموعات الجريمة المنظمة، انه حصار من اربع جهات. ولسوف نبقى امة عاجزة مالم يدرك اصحاب القرار ان الحرب على جبهة واحدة لن يقود الى نصر.

مواجهة الإحباط

Dealing with Frustration

في مواجهة الاحباط يتعين معرفة متى يمكن التوقف ومن ثم الانعطاف نحو اتجاه جديد. في ادناه بعض المقترحات التي تساعد على تجنب الاحباط:

- محاولة تحديد مصدر القلق، هل هي خارجية ام داخلية؟
- هل ان مصدر القلق شيء يمكن تغييره؟ كم هو صعب العمل على تغييره؟ هل هو تحت السيطرة ام لا؟
- اذا كان مصدر الاحباط مما يمكن تغييره او ازالته، فهل ان الجهد المبذول يستحق المحاولة؟

الاجوبة على هذه الاسئلة تساعد على تحديد فيما اذا كانت محاولة مواجهة الاحباط مجدية او عديمة الجدوى. والاغلب ان عمليات الاحباط التي تحدث خارج ارادة الانسان لا يجدي مواجهتها انما تحتاج مجهودات اصحاب القرار. وعلى اية حال اذا كانت عديمة الجدوى، فان هناك قيمة لقبول الاشياء غير القابلة للتغير خصوصا على المستوى الفردي. وانه من المفيد ايضا التمييز بين العوائق الحقيقية والعوائق المتخيلة، حيث اننا احيانا نخلق عوائق متخيلة. كما لو قدمنا على وظيفة وطلبوا منا خبرة لا تقل عن خمس سنين عندها سنصاب بالإحباط ونوقف البحث عن وظيفة بيد ان هذا العائق ليس حقيقيا بما فيه الكفاية ليوقف مجهودنا في البحث، ولو واصلنا البحث لوجدنا حتما بعض الابواب غير المغلقة.

النزعة الهروبية في الثقافة العراقية

Runaway Tendency in Iraqi Culture

الشجاعة هي ان لا يعرف أحد انك خائف

البيئة الضاغطة

The pressurized milieu

لقد دخل الخراب في محراب العابد وتحت قلنسوة الزاهد وخلف عمامة الفقيه واخترق النخاع من الاظافر الى الاظافر حتى صرنا نرى السارق يسرق والقاتل يقتل والزاني يزني والمنافق يتزلف والكذاب يكذب والبائع يغش ونحن نتفرج ونضحك كأننا نستزيدهم، ثم ظننا ان ظاهرة التسرب والهروب ظاهرة غير مألوفة في مجال القوات المسلحة رغم انها مألوفة جدا في كل مظاهر النشاط الاجتماعي في العمل والدراسة وفي جماعات اللعب لأنها غريزة تجري في العروق مجرى الدم، وهي لذلك لا تقتصر على مجتمع بعينه وانما حدثت وتحدث في كل المجتمعات، في مختلف الازمان وفي كل الظروف وهي نتيجة لتفاعل النفس self مع البيئة الاجتماعية social milieu وتزداد حيثما وجدت بيئة ضاغطة مع ضعف في القوى النفسية الكامنة. هكذا نعتقد، ونعتقد ايضا ان شخصية المتسرب تنطوي على ضعف في البناء النفسي والولاء الوطني والايمان

العقائدي. واذا تظافرت العوامل الداخلية المرتبكة مع عوامل خارجية كالتهديد بالقتل او الخوف الشديد من الموت فان ذلك قد يقود الى انهيار تام في المعنويات.

اما البيئة الضاغطة فهي البيئة الاجتماعية التي تعطي الفرد خيارات محدودة جدا فمثلا ليس امام شخص يتعرض لتهديد ثلاث رجال اقوياء البنية الا ان يستخدم احدى ميكانزمات الدفاع اما ان يقاتل وهو يعرف النتيجة او يهرب والهرب سيكون اسلم الحلول لتجنب خبرة مؤلمة ولكنه سيكون صعب للغاية اذا كانت الثقافة السائدة تعيب الهرب وتعتبره جبنا وعارا. وماذا يمكن لشخص متعلم حاصل على اعلى الشهادات الجامعية ان يفعل للحصول على فرصة عمل وليس امامه الا ان يلتحق بالقوات المسلحة او مليشيات او جماعات اجرامية او عصابات سرقة وفي حالة كهذه يضطر كثير من الشباب للانخراط في واحدة من هذه الجماعات وهو كاره لها، يدفعه في ذلك الحصول على مصدر للعيش لتكوين اسرة او اعالة اسرة فاذا تهددت قوة خارجية البناء النفسي الهش لشخص ليس منسجما كليا مع الجماعة وقواعدها الاخلاقية والضبطية فان اول خطوة يفكر فيها هي الهرب، حيث ان تجنب الخبرة المؤلمة والحفاظ على الذات ستكون عندئذ اقوى من العائد المادي، ويبدو ان ثقافة المجتمع السائدة culture of the society تدفع بهذا الاتجاه خصوصا الثقافة العربية حيث تسمع كثير من الناس يتداولون بطريقة المزاح ان «الهزيمة ثلثين المراجل» والمزاح غالبا يعبر عن توجهات الناس الحقيقية التي يتعذر التعبير عنها بشكل صريح ومباشر خوفا من الانتقاد او تجنب

نظرة الناس الدونية لان السلوك الانهزامي مستهجن ثقافيا واخلاقيا ودينيا ايضا. ان مشكلة من هذا النوع وبهذا الحجم لا بد ان تلفت نظر الباحثين في علمي النفس والاجتماع لدراستها والوقوف على اسبابها ونتائجها. وهذا هو بالضبط ما تسعى هذه الورقة للقيام به من اجل المساهمة في تشخيص وتحليل هذه الظاهرة.

كنت أتمنى ان املك سلطة من اي نوع تؤهلني لمحاكمة الثقافة التي انتجت مفهوم « الهزيمة ثلثين المراجل « او على اقل تقدير اكون شاهدا مع الشهود لتقديم الأدلة اللازمة لوضع هذه الثقافة خلف القضبان مع المجرمين والخونة واتباع الشيطان الذين يعملون بلا ملل على اعداد شخصيات مستعدة للهرب تحت ابسط ظروف الضغط والتهديد، ليكونوا شهود زور على احدى اهم مؤسسات المجتمع التي طالها الخراب. لكن قبل المضي قدما في استعداداتنا لنصب المشانق، وتهيئة لائحة الاتهامات والتلويح بالأصفاد لنتعرف على ماهية الثقافة لتي تزرع في داخل أعضائها بذرة الخراب.

ماهية الثقافة

What’s Culture

لكل مجتمع من المجتمعات الانسانية مهما كان تخلفه او تقدمه ثقافة يسميها بواز Boas (١٩٣٠:٣٠) العادات الاجتماعية للمجتمع المحلي ويسميها سمث وبوند Smith & Bond (١٩٩٨:٦٩) «انظمة المعاني المشتركة» ويسميها كروبر وكلاكهون (١٩٥٢) Krober & Kluckhon

«انماط السلوك التي تنتقل بين الافراد عن طريق الرموز وتشمل اللغة والافكار والقيم المرافقة لها والادوار والاتجاهات وطرز البناء» اما تايلور (١٨٩١:١٦) Taylor فانة يعرف الثقافة على انها «ذلك الكل المركب الذي يشمل العائدات والتقاليد والاعراف والمعايير والفنون والآداب وكل ما يكتسبة الفرد بوصفه عضوا في مجتمع».

واذ كانت الثقافة بهذا المعنى الشمولي تنطوي على درجة عالية من القدرة على صهر السلوك الفردي ليتماثل مع سلوك الاخرين في المجتمع فان الثقافة بهذا المعنى تحدد السلوك الانساني ضمن منظومات من القيم والعادات والتقاليد والمعايير التي يصعب على الفرد الخروج منها وفي هذا السياق يقول ماكيفر وبيج MacIver & page (١٩٦٧): ان العلاقة بين الثقافة والشخصية تنطوي في وجه من الوجوه على توفير الارث الاجتماعي الكلي للأفراد الذين يتمثلونها بطرائق شعورية ولا شعورية ومن جهة اخرى تمثل السمة التكاملية للوجود الشخصي integral character of the individual being

والشخصية الاجتماعية تمثل كل العناصر كوحدة وهي اشمل بكثير من الفردية وفي ذلك يقول ماكيفر وبيج ان الثقافة تقرر المعنى الواسع لشخصيات الافراد وانماط سلوكهم والتي تعكس في الوقت نفسه نمط الثقافة التي يعيشون فيها.

الواقع ان الثقافة ليست ما يتعلمه الانسان الفرد وحده، ولكنها عامل مشترك لجميع افراد المجتمع لهذا فانه بدون لغة مشتركة فان اعضاء المجتمع لا يستطيعون الاتصال ببعضهم او يتعاونون بفاعلية وانه بدون

قواعد يشترك فيها الجميع فان المجتمع سيكون مفككا. تخيل الفوضى التي تحدث في مجتمع اليوم بدون قواعد مرورية، ولماذا تتخيل انزل الى شوارع بغداد في الصباح، في المساء، وعندما ينام الناس والبهائم والأشجار في كل مكان، وسترى هول الفوضى، فالقواعد الثقافية هنا هي التي يتعلمها الافراد ويشتركون فيها، لذلك كما يقول هارالامبوس Haralambos واخرين انه بدون قواعد ثقافية فان (١٩٩١: ٢-٣) المجتمع غير موجود.

في ضوء ما تقدم يمكن القول الثقافة هي عصاره ما انتجته المجتمعات وتناقلته الاجيال عبر السنين والايام من معارف وقيم ومعتقدات وفنون وآداب واخلاق واعراف وتكنلوجيا والتي في ضوئها تتشكل شخصيات الافراد وتتنوع سلوكياتهم بما يتطابق مع الارث الاجتماعي ولان الثقافة اطار عام للمجتمع والفرد على حد سواء فان المجتمعات تتنوع في ثقافتها وتختلف في عاداتها وتقاليدها محكومة بظروفها الطبيعية وتحدياتها وبخبراتها المتراكمة فما نراه قيمة عليا في ثقافتنا قد يراه اخرون شيئا عابرا في ثقافة اخرى فمثلا الانكليز لا ينظرون للشرف على اعتباره مرتبطا بالمرأة بل ان المرأة التي لا تملك تجارب جنسية قبل الزواج تعتبر ساذجة ولا احد يفضل الارتباط بها بينما يعزف اي شاب في ثقافتنا عن الارتباط بأي فتاه لمجرد ان لها علاقة عاطفية عابرة نظيفة. ليس في ثقافة الاخرين (ليس لي علاقة) فلو سقطت من جيبك ورقة من غير قصد في الشارع فستجد امرأة عجوز خلفك تربت على كتفك وتقول لك التقط ما سقط منك واجعل البلد نظيفة واذا كانت العجوز ممن لا

يحبون الاجانب فإنها ببساطة تقول لك التقطها والا عد الى بلادك وارم فيها ماشئت من الازبال

التسرب ظاهرة نفسية - ثقافية

psycho- cultural phenomenon

في كل المجتمعات هنالك بعض الافراد تحت ظروف ضاغطة او مهددة يتمكنوا من الحصول على الحصانة الثقافية الكافية لمغالبة الهروب او النكوص او الاستسلام ولان سلوك الفرد مكون من مكونات الثقافة فان الاستنتاج الاولي يوحي بان ثقافة المواجهة لم تجد طريقها للتمثيل في داخل الشخصية وان دراسة شاملة لمواقع الوهن في الثقافة تصبح حاجة ملحة اكثر من اي وقت مضى كما ان مناهج التربية الاساسية تحتاج الى عناية اكبر ومراجعة دقيقة باعتبارها اهم مفاتيح غرس ثقافة المجتمع داخل الافراد

ولكي لا تضيع الفكرة الاساسية لتأثيرات الثقافة على بناء الشخصية فان النظرة المعمقة للجماعة وسلوكها من شانها ان تعطي انطباعا عن كيفية بناء الشخصية داخل الجماعة (الجماعات). ان تركيب الجماعات وديناميكياتها بما في ذلك دخول اعضاء جدد وخروج اعضاء قدامى وتأثيرات الجماعة على الفرد وتأثير الفرد على الجماعة لا تعكس فقط نمط الثقافة التي يمكن ان يتلقاها الفرد بل ايضا تأثيراتها المباشرة على حركة الجماعة داخل المجتمع الكلي Hogg& Vaughan (١٩٩٥).

في الجماعات المرجعية reference group غالبا ما نجد الافراد

يتعنقدون حول مركز (الزعامة) وهناك دائما افراد لهم نفوذ ومواقعهم غالبا قريبة جدا من المركز وفي الوقت ذاته هنالك دائما افراد على الهامش، هؤلاء المهمشون ليسوا ثوارا وليسوا قد يسين ولكنهم يمكن ان يتحولوا في وقت من الاوقات الى جماعات متمردة على المركز وقد يعملون على زعزعة مواقع اصحاب النفوذ وعموما لا تستغني الجماعة عن افرادها الذين يتعنقدون حول المركز او على الهامش لانهم يمثلون عامل بقاءها وديمومتها من خلال ادوارهم المتمايزة التي تنشط وتضعف حسب نشاط وفاعلية المركز (١٩٧٦) Merton & kit

ويبدو ان هذه المجموعات تقترب وتبتعد عن المركز بحسب تمثلها لقيم الجماعة المرجعية ومعاييرها. لقد ادرك المربون ورجال السياسة ان تدارك مشكلة الافراد الذين يتباعدون عن المركز ويقتربون من الهامش ويوشكون على الخروج من الجماعة لينظموا الى جماعات اخرى ترعى مصالحهم وتتماثل في توجهاتها الاخلاقية والقيمية مع اتجاهاتهم بان وجدوا لهم ادوارا اكثر فاعلية وان سياسة التهميش او الشعور باللا انتماء لأعداد متزايدة من الافراد داخل الجماعة يمكن ان يهدد كيان الجماعة ويقودها الى التفتت والفناء.

داخل الجماعة / خارج الجماعة

In Group & Out Group

الانسان عاده لا يقوم بفعل ما تجاه الاخرين كفرد منعزل انه في الواقع جزء من مجتمع محلي والمجتمع المحلي جزء من مجتمع اكبر يتمتع

اعضائه بتوافقات مشتركة حول مختلف الادوار الاجتماعية هذه الادوار من شانها ان تحدد ديناميكية الجماعة وتوجهاتها كما ان افراد هذه الجماعة او تلك لا يمثلون اتجاهات عشوائية بل يمثلون معايير نموذجية وادوار مقننة ويعتبرون انفسهم جزء منها فهي تمتلك القدرة على حمايتهم وتحقيق مصالحهم وهم بدورهم يمتثلون لقواعدها القيمية والاخلاقية Coser & Rosenberg(١٩٧٦).

وعلى هذا الاساس يضع الافراد انفسهم في معادلة «نحن «مقابل «هم « وغالبا يضفي الفرد الذي ينتمي لمجموعة ما على مجموعته كل الصفات الحميدة وينزع اي فضيلة تتمتع بها جماعة «هم» او الاخرين في هذا السياق نقتطع ما قاله موريس Morris (١٩٦٩:١٢٤) في كتابه حديقة الحيوانات البشرية:

السؤال هو ما الفرق بين مواطن اصلي اسود يقطع او صال بعثة عسكرية تبشيرية بيضاء وغوغاء من البيض يقتلون مواطنا اسود اعزل لا حيلة له، الجواب لا فرق خصوصا بالنسبة للضحايا مهما كانت الاسباب ومهما كانت المبررات ومهما كانت الدوافع فان ميكانزمات السلوك الاساسية واحدة. في كلتا الحالتين فان افراد الـ (نحن) يهاجمون جماعة الـ (هم).

الواقع ان دخولنا هذا الحقل الصعب يفقدنا القدرة في الحفاظ على الموضوعية في النظر الى in group/ out group والسبب ببساطة

اننا ننتمي بالضرورة الى جماعة الـ (نحن) ومن الصعب علينا ان نرى النزاع بين مجموعتين دون ان ننحاز لا شعوريا لطرف الـ (نحن) ضد (الآخر) (١٩٣٤) Mead.

ومهما يكن فان التنظيم الداخلي لكل جماعة يعتمد على حجم الجماعة ودرجة تماسكها وقد تنطوي الجماعة الاساسية على عدد من الجماعات وعندئذ تكون جماعة الجماعات group of groups كما هو الحال في القبيلة العربية حيث تنقسم الى بطون وافخاذ وكلها جماعات اصغر تؤلف بمجموعها القبيلة وترتبط مع بعضها بقواسم مشتركة كالدم والجيرة والحلف والمصاهرة والتي تجمعهم مع بعض وتميزهم عن غيرهم لهذا فان الاختلافات تظهر بين (نحن) كجماعة in group و« هم» out group وان علاقات ال (نحن) الداخلية تتميز بالانسجام والتعاون والتواد والتراحم فيما توصف جماعة (هم) بانها عدوانية دموية استلابية (١٩٠٤) Sumner

وبحسب ميرتون وكت (١٩٧٦)Merton& kit فان الاذعان لمعايير الجماعة التي ينتمي لها الفرد تأتي طواعية عبر نظام التنشئة الاجتماعية socialization ويقابلها اللااذعان لمعايير الجماعات الاخرى المناوئة وربما النظر اليها بعدوانية. لقد اوضح ميرتون ولازار فيلد lazerfeild & Merton ١٩٥٠ في مقالهما المعنون (الجندي الامريكي) ان امتثال الجندي الامريكي لنظام التراتب الوظيفي وسلسلة المراجع هو الذي يقود الى وحدة الجماعة وتماسكها وهو متأتي من ادراك الانتماء المصيري للجماعة التي غرست لديهم اثناء التربية في المدارس العسكرية.

جماعة الـ (نحن) وجماعة الـ (هم) وتطبيقاتها في العراق

In-group، Our-group
Implications in Iraq

قبل الفتنة الطائفية بسنوات كان الاعتقاد السائد ان العراقيين بوعيهم الحاد وفطنتهم قد تجاوزوا التحزب الطائفي والانقسام الديني والعرقي واغلبهم في الواقع كذلك حيث ترى نظام المصاهرة بينهم على اشده ولم يكن احد يسال عن طائفة او دين او عرق جيرانه ولفترة ما قبل الفتنة كان اصدقاء على مدى عقود لا يعرفون دين او مذهب او عرق اصدقائهم ولم يكن ذلك ذا قيمة تذكر لكي يسالوا بعضهم البعض عنه حتى العرقية لم تكن ظاهره للعيان رغم ان نيرانها كانت تتوهج تحت الرماد، وبفعل السياسة والسياسيون صارت واحدة من اكبر معضلات العراق المعاصر وسوف تجد لها طريقا للاحتراب مادامت هناك قوى دولية ومحلية تنتفع من ذلك

المؤلم في كل ما مر على العراق منذ الاحتلال عام ٢٠٠٣ حتى اللحظة ليس انقيادنا الاعمى لما يخططه الاخرون وليس احترابنا من اجل حفنة من الاوراق الشيطانية الخضراء التي سرقها اللصوص من قوت اطفالنا وارسلوها لنا مفرقعات وعبوات ناسفة وانتحاريون، المؤلم اننا انقسمنا على بعضنا فصارت مجموعة ال (نحن) تطلق على مجموعة ال (هم) الجيش الصفوي وجيش المالكي وميليشيات فيلق القدس الفارسي وبذلك صار الشيعة العرب (فرسا) رغماً عنهم في الجانب الاخر كانت مجموعة

الـ (نحن) تطلق على اهل السنة بالوهابية والتكفيريين والامويين وقتله الحسين فصار اهل السنة وهابيون وامويين رغماً عنهم ولا احد ينفي ان هناك دوائر مخابراتية عالمية تخطط وتخترع التسميات لكي تقوم مجموعة ال (نحن) بإلصاق ابشع الصفات بمجموعة الـ (هم) من اجل تعميق الشرخ في بنية المجتمع حتى لا يستطيع مصلح ولا فيلسوف ولا شيخ ولا قديس ان يعيد الثقة في بعضنا البعض. لقد دخل السياسيون وتجار الحروب وسماسرة اخر الليل على الخط وعربدوا كثيرا من اجل ان لا يبقى جسر الائمة معبرا امينا بين الاعظمية والكاظمية ولا جسر الشهداء رابطا اخلاقيا بين الكرخ والرصافة. ولكي يبقى الانقسام قائما بين الـ (نحن) والـ (هم) يجلس دهاة الشر في مكان ما من بلدنا بالتنسيق مع اشقاءنا وشركاءنا في الوطن ليأتوا بالشيشانيين الذين تخلوا عن الشيشان والافغانيين الذين تخلوا عن افغانستان والصوماليين الذين تخلوا عن الصومال ونخبة من شذاذ الافاق جمعوا من شتات الارض ليرسلوا لنا رسالة مفادها ان هذا البلد ينبغي ان يبقى تحت الحراب وان لا يكون له دور عربي او اقليمي لعشرات قادمة من السنين.

لقد زودونا وزودوا اعداءنا بالسلاح والمعلومات والدعاية بقدر متساو لكي نبقى ناكل بعضنا بعضا كالحيات فيما يمتصون دمنا وثروة اولادنا واحفادنا. ويبدو اننا نحتاج الى وقت اطول من الاحتراب لكي نفهم اننا ضحية لعبة واننا ننساق في فصول هذه اللعبة بإرادتنا وحين نفهم ذلك يكون مصاصي دماء الشعوب ومشعلي الحرائق قد صادروا خبز اولادنا لمئة عام قادمة.

العوامل غير المباشرة للتسرب

Indirect Factors

اذا كنا قد اوغلنا كثيرا في الاسباب الثقافية ـ النفسية لظاهره التسرب واشرنا الى ان في الثقافة العراقية عوامل وهن تساعد على تسرب المتسربين تحت ابسط ظروف التهديد وان دراسة عوامل الوهن في الثقافة صارت ضرورة ملحة فان الثقافة ليست وحدها المسؤولة عن هذا الوهن بل هناك عوامل اضافية نوجزها فيما يلي :.

الجماعة والقيادة:
تأثيرات الماضي على الحاضر!

Group and Leadership:
the impact of the past on the present

لما كان العراق قد حكم على مدى اربعة عقود بنظام بوليسي دموي شديد الوطأة جعل الناس ينكمشون بهدوء خوفا من الرقيب والحسيب والامن العام والامن الخاص والشرطة السرية والمخابرات، وباختصار شديد كان النظام مدججا بكل انواع الترويع لفرط حساسيته الامنية حتى بات الزوج يخاف من زوجته والاب من ابنه والخليل من خليلته وبات كتاب التقارير اكثر من عدد النجوم وصار الناس يعضون على الاصابع خوفا من ان ينبسوا ببنت شفة فيذهبون ولا يعودون فكانوا يشكون لبعضهم البعض همسا فهرب خلق كثير خلف الحدود فيما لاذ الباقون بالصمت حتى انتفخت بطونهم من القهر، اكلوا الحجارة وعلف الحيوانات ونشارة

الخشب ومع ذلك كانوا ينشدون للقائد القصائد العصماء ويرقصون في الشوارع في المناسبات الوطنية والقومية التي كانت اكثر من عيدي الفطر والاضحى بسبعين مرة.

وحين سقط النظام بقوة غاشمة تصدع بيوم وليلة واثبتت الاحداث ان العقب الحديدية لا تصنع التاريخ بل على العكس لطخت كثير من صفحات التاريخ بالعار، وعلى اثر ذلك هاج الناس في الشوارع والحارات مسلحين بعدوانية فاقت كل الحدود ضد مؤسسات بلدهم فنهبوها واحرقوها وخربوها ثم باعوا ما تبقى منها لسماسرة جاءوا من خلف الحدود وفي خضم ذلك ساهم المحتل وكل من له ثأر من النظام في تهرأ البنى التحتية ودمرت المصانع او فككت وبيعت بالمفرد وطورد رجال العهد القديم حيث جاءت اسمائهم وعناوينهم بقوائم من خلف الحدود فهرب قسم منهم بليل. منهم من وجد له حاضنه هنا او هناك ومنهم من هرب خلف الحدود ومنهم من اغلق بابه عليه ثم وجدت جثته ملقاة على قارعة الطريق. ثم صار الناس يألفون النوم بين الجثث التي انتشرت في الازقة والانهار وتحت الاشجار وفي المزابل ايضا وقتل خلق كثير بكواتم الصوت. قتل اطباء وعلماء ومعلمون وطيارون ماهرون برصاصات غادره فيما لاذ قادة الجيش -الذي حله «الصديق المحتل» بجرة قلم- بالصمت والخذلان بعد ان كانوا يقودون جيشا من ارفع جيوش المنطقة ثم حاول القادة الجدد ترميم الجراح واعادة بناء المؤسسة العسكرية بسرعة للحفاظ على الامن المفقود الذي ظل يتدهور يوما بعد يوم، بيد ان السرعة في البناء لم تكن قادرة على بناء جيش من العدم الا اذا

اريد له ان يكون جيشا من ورق فاصبح القادة الجدد بدون ارث عسكري وبدون تدريب علمي وبدون أركان، بل صار بعض القادة القدامى تحت امرة من لا خبرة لهم في قيادة الجيوش. وعادة الجيوش تقاس بقادتها لا بعدد افرادها حتى ليقال في الحكمة التي اوردها الابشيهي ١٩٩٢» ان اسد يقود الف ثعلب خير من ثعلب يقود الف اسد» وهنا لابد ان نعود مرة اخرى للثقافة العامة للمجتمع حيث ينتقل الارث الثقافي من جيل لآخر عبر قنوات اتصال مستمرة ولكن حيث يحدث قطع في مكونات الثقافة فان ثقة المجتمع في مؤسساته ومنها المؤسسة العسكرية ستكون مفقودة ولان المؤسسة العسكرية تستمد قوتها من دعم المجتمع لها تصبح المعادلة شبه مختلة فيتسرب الوهن الى افراد القوات المسلحة التي افتقدت المهنية والخبرة التراكمية والتدريب الذي يمنح المقاتل القدرة على الثبات في الازمات كما ان التحصين النفسي والمعنوي هو الاخر مفقود مما ادى بشائعة محكمة الصناعة الى فرار اربعة فرق يزيد عددها على ثلاثين الفا امام ثلاثة الاف عباءه سوداء. المثل الافريقي المعروف يقول «**اذا ماتت عجائز الطيور فسد البيض**» ويبدو ان فساد بيض المؤسسة العسكرية لا يعود ابدا للتجهيز والتسليح وانما للإدارة والقيادة والخبرة التراكمية والتحصين النفسي والمعنوي. على مدى الثلاثة عشر عاما المنصرمة نشأت طبقة من العسكريين غير المهنيين كان همهم الاول ان يحصلوا على نصف قوت جنودهم، لقد فسدوا وافسدوا وصار العسكري لا يكترث كثيرا للواجبات والاوامر والتدريب مادام قادرا ان يرضي قائده بنصف قوت يومه ثم صار كثير من القادة واشباه القادة ومن هم دونهم

يتفننون ويتغالبون في اضافة الاسماء الوهمية في سجلات وحداتهم بحثا عن الثراء السريع ثم صاروا بعد ذلك لا يكترثون لأوامر القيادات العليا او يتساهلون في تنفيذ الأوامر ويرسلون تقاريرهم اليومية للقيادات العليا بشكل مزيف او مبالغ فيه وباختصار صار الجيش بلا رابط ولا ضابط مؤسسة شبه سائبة.

العوامل الاقتصادية والادارية

Economic-administrational Factors

يلعب العامل الاقتصادي دورا مهما في تماسك الجماعات او تفككها ولما كانت الثروة النفطية هي المصدر الوحيد للدخل بعد انهيار النظام السابق ٢٠٠٣ حيث خربت عن قصد كل مؤسسات المجتمع الانتاجية لكي يبقى العراق بلدا مستهلكا لاحول له ولا قوة وتلك السياسة ادت الى نتائج وخيمة اهمها ان بلداً بحجم العراق وتاريخه وثرواته المتعددة المصادر لا يستطيع ان ينتج ما يأكل ولديه نهرين عظيمين وشمس على مدار السنة وايدي ماهرة وشبه ماهرة معطلة تنذر بكارثة اقتصادية من شانها تهديد الامن الغذائي للمجتمع ولان الايدي الماهرة وشبه الماهرة اركنت جانبا وعمل كثير من اصحاب العمل والشركات المحلية والاجنبية الى استقدام عمالة اجنبية اقل كفاءة واقل حرصا على النمو الاقتصادي للبلد وبمباركة اصحاب القرار السياسي مما يدل على اختلال خطير في التخطيط الاقتصادي.

ان اعتماد البلد على الثروة النفطية كعائد وحيد وعدم الجدية في

تنويع مصادر الدخل القومي دفع الايدي العاملة الماهرة للهجرة وما بقي منها لجأت لكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للحصول على وظيفة حكومية ثم صارت الوظائف الحكومية تباع لهم بواسطة سماسرة محترفون يقتسمون غنائمهم مع بعض رجال السياسية واصحاب القرار وقد ادت سياسة التوظيف العشوائية غير المعتمدة على دراسة لحاجات مؤسسات الدولة الى تكدس اعداد هائلة من الموظفين الذين ليس لديهم عمل حقيقي فصار هذا الجيش من الموظفين معطلا ومعطلا كما ادت سياسة التوظيف العشوائية الى انتشار الوساطة والمحسوبية والرشوة فالذين لديهم معارف واصدقاء في الحكومة صاروا يحصلون على الوظائف بسهولة فيما يعاني مئات الالاف من الانتظار لسنين وقد لا يحصلون ابدا على فرصة مالم يدفعوا الثمن او يبتسم لهم الحظ مصادفة. من جهة اخرى ادى الانقسام الطائفي والتخندق العرقي الى ان يوظف الافراد من مجموعة ال (نحن) فيما يركن جانبا المنتمين الى مجموعة ال (هم) او الاخرين مما عمق ذلك عملية الانقسام وتدهور العلاقة بين مكونات المجتمع الواحد.

لقد ادت هذه السياسة الى وضع العاطلين عن العمل امام خيار واحد هو الانتساب للقوات الامنية والمؤسسة العسكرية وهؤلاء لم يخضعوا لأي اختبار نفسي او بدني او اجتماعي علمي مما جعل المؤسسة العسكرية تضم عناصر لا تصلح اطلاقا للعمل وفق سياقات المهنة وضوابطها الادارية والأخلاقية.

وفي خضم ذلك ضاعت الخبرة والكفاءة والمهنية واصبح العاملون

في مؤسسات الدولة يعملون في غير مجالات اختصاصاتهم او رغبتهم فصار مثلا بائع متجول يقود فريقا من المهندسين ومضمد يقود فصيلا من الاطباء او فاسد يقود مؤسسة دينية وهذه عملية من شانها تخريب اقتصاد البلد ودفعه نحو الهاوية وفوق هذا كله فان جيش العاطلين من الموظفين الذين لا يعملون اكثر من ساعة واحدة (ساعة عمل حقيقية) في اليوم يتمتعون بمعدل عطل رسمية تفوق معدلاتها في اي مكان في العالم بعشرين ضعفا مما ادى ذلك الى الإخلال في اداء الواجبات وخدمة المواطنين. وبنفس السياق اتبع مستوى الاداء الوظيفي في مؤسسات الدولة قواعد روتينية مؤذية نفسيا وماديا للمواطن الذي ينتظر انجاز معاملته في يوم واحد فيما صارت تستغرق ثلاثة اشهر والمبررات موجودة، فالموظف مجاز والاخر ايفاد والاخر مريض و«السيستم» عاطل ونورية لديها عيد ميلاد وحمزية حصلت على ترفيع وجلبت معها قدر «دولمة» احتفاء وعليه (راجعنا غدا) صارت مألوفة ومقززة وقد ادت العملية الى اختناقات مرورية تفوق كل التصورات بسبب ان الناس يعودون يوميا لمراجعة دوائر الدولة التي تؤجل معاملاتهم يوما بعد اخر هذا مع فقدان اخلاق الشارع وقواعده وعدم جدية رجال المرور في تنظيم قواعد السير وقد ادى ذلك الى الترحم على النظام السابق رغم قسوته ولكنه كان ناجحا في توفير الامن والخدمات.

كل هذه العوامل غير المباشرة كان لها تأثيرا نفسيا خطيرا على المقاتل الذي فقد الاحساس بروح المواطنة بسبب التمايز الطائفي والعرقي وسياسة التوظيف والادارة البيروقراطية المعرقلة لمصالح

الناس والتعامل الفوقي مع المواطن الذي ياتي املاً في انجاز معاملاته، واحترامه كانسان له الحق في هذا الوطن. والمواطن الذي يعود لبيته متذمرا بعد رحلة يوم شاق في مراجعات عقيمة ومهينة لدوائر الدولة سوف يعكس ذلك على اسرته واصدقاءه وجيرانه والمواطن الذي لا يجد احتراما في بلده لا يشعر ابدا بانتمائه اليه او الدفاع عنه.

خلاصة

Conclusion

كل الذي كنا نسعى اليه في هذه الورقة هو ان نسلط الضوء على ظاهرة تسرب منتسبي القوات المسلحة وسرعة وسهولة تخليهم عن مواقعهم في ضوء ثقافة المجتمع. المؤكد ان ثقافة (الهزيمة ثلثين المراجل) و (انا في الهزيمة كالغزال) وكثير من الامثال الشائعة التي يتداولها الناس بطريقة المزاح تعكس ان السلامة اولاً وحيثما يشعر الفرد بالخطر فان القيم الاخرى ستتعطل وان بناء الشخصية في ضوء المعايير الثقافية غير الحيادية في تأييد الهرب ضمنا من اجل الحفاظ على السلامة من شانها ان تخلق شخصيات تميل الى النكوص والتراجع والاستسلام تحت ظروف التهديد. واذا كانت الثقافة عاملا محفزا ومهماً فان عوامل إضافية ضمن الثقافة ايضا تعمل على تحييد الشخصية السوية التي تواجه المخاطر بثبات، عوامل مثل الانقسام الطائفي والولاءات المحلية لمجموعات ال (نحن) مقابل مجموعات ال (هم) او الاخرون وسوء الادارة وفساد بعض القادة والامرين الذين لا يتمتعون بمواصفات

القيادة الميدانية في ادارة المنتسبين ويشكلون خطرا داهماً على بنية المؤسسة العسكرية، كما ان نقص الخبرات وضعف الكفاءة في القيادة ووضع الرجل المناسب في المكان غير المناسب وغياب التحصين النفسي والمعنوي لأفراد القوات المسلحة كل هذه العوامل ساعدت على وجود الوهن في المؤسسة العسكرية والى جانب ذلك عملت الإدارة العامة لشؤون المجتمع ومؤسساته باعتبارها الخلفية الداعمة للقوات المسلحة على تدهور الثقة بين المواطن ومؤسسات الدولة وبالتالي فان شعور المواطن بالضعة والهوان وعدم الاحترام في تعاملاته اليومية مع طوابير البطالة المقنعة في دوائر الدولة بأدائها المنخفض جدا والمهين لكرامة الانسان ادى الى اضعاف روح المواطنة وبالتالي فان الاعتماد على قاده فاسدين ومقاتلين يعاملون معاملة القطعان وادارة تقاسم المقاتلين في ارزاقهم ومواردهم غير متوقع منهم الصمود والقتال حتى اخر طلقة. ولذلك فان شائعة محكمة يمكن ان تهزم جيشا كاملا من هذا النوع وهو بالضبط ما حصل في الموصل.

صحيح ان قوى دولية كثيره ساهمت في صنع الهزيمة بمساهمة شركاء في الوطن، ولكن لو ان القوات المسلحة تمتلك الحد الادنى من التحصين النفسي والمعنوي لما كان ذلك يحدث او على الاقل لما كان يحدث بهذا المستوى وهذا الكم.

لقد تأكد لنا ان مستوى اداء القوات المسلحة يعتمد بالدرجة الاساس على مستوى اداء القادة وفي كافة المستويات وان اسدا يقود الف ثعلب خير من ثعلب يقود الف اسد.

التوصيات والمقترحات
Recommendation and Suggestion

١ - في المجال العسكري
The Military Scope

أ- يتعين اعاده النظر في اختيار القادة والامرين في ضوء معايير الكفاءة والقدرة النفسية والعقلية

ب - تشديد الرقابة على القادة والامرين الذين يأكلون نصف رغيف الخبز المخصص لمنتسبيهم بمعنى ادق محاسبة شديدة لكل الفاسدين والمرتشين من اصحاب النفوس الضعيفة الذين لا يتورعون عن اكل السحت على حساب المهنية والضوابط الاخلاقية للقوات المسلحة

ج - العمل على تقوية مفهوم الثواب والعقاب في المؤسسة العسكرية

د - عدم التساهل مع التقارير الكاذبة والمبالغ فيها عن وضع القوات المسلحة وتدريبها ومعنويتها وتجهيزها والتي تصل الى القيادات والتي تتخذ في ضوئها القرارات فاذا كانت المعنويات منخفضة والتجهيزات

غير مأمونة وغير كافية لخوض معركة فان القادة عليهم مسؤولية نقل الصورة كما هي للمراجع العليا والا ستحدث هزائم أخرى، لقد كان القادة في حروب سابقة ينقلون لقيادتهم ومراجعهم صورة مظللة عن الوضع الميداني مما ادى الى خسائر مادية وبشرية تفوق كل التوقعات ولا ينبغي التساهل مع هكذا تقارير على الاطلاق.

هـ - اعاده النظر في التدريب والتأهيل ومعايير القيادة وضوابطها الاكاديمية وخبراتها الميدانية بغض النظر عن انتماءات القادة السياسية والعرقية والفئوية فالكفوء من «الاخر» افضل من عدم الكفوء من ال «نحن» مما يخلق ذلك حساً بتقدير الكفاءة والمهنية ويعزز الشعور بالوطن والمواطنة.

و- العمل على اشاعة روح الفريق في الاداء بدل الفردية والانتقائية ووضع الصلاحيات في يد واحدة. وذلك ما ينبغي ان يحدث في الكليات العسكرية ومراكز التدريب والتأهيل.

٢- في الجانب النفسي والاجتماعي

Socio-Psychological Aspects

أ - العمل على ايجاد وحدات للحرب النفسية والتوجيه المعنوي داخل القيادات والفرق من شانها ان تنقل للمراكز المتخصصة وعلى وجه السرعة كل ما يشاع ويجري داخل القوات المسلحة

ب - العمل على بناء مراكز للبحث النفسي والاجتماعي من شانها القيام بجمع وتحليل الدعاية والشائعات ومعالجتها واطلاق ما يناسب

من الشائعات المضادة ولا ينبغي الاعتماد على الاعلاميين الذين يميلون الى المبالغة وتشوية بعض الحقائق فقط.

ج - يتم التنسيق الوثيق بين وسائل الاعلام ومراكز تحليل الدعاية والشائعة وشعب الحرب النفسية من خلال وحده مركزية للحرب النفسية ترتبط بوزير الدفاع مباشره او بالقائد العام للقوات المسلحة

د - يتم التعاون الوثيق بين شعب الحرب النفسية والاكاديميين في حقول علم النفس وعلم الاجتماع والاعلام

هـ - اقامة دورات تدريبية دورية في مجالات الحرب النفسية الحديثة لإعداد كوادر مسلحة بالمعرفة العلمية وبالتعاون مع المتخصصين في الجامعات العراقية

و - التنسيق العالي بين مديريات الاستخبارات والمخابرات والامن واستخدم الاكاديميين في المشاركة في بناء هذه المؤسسات بما يتناسب والتطور الحاصل في مجالات الحرب النفسية الحديثة

٣- في المجال الاداري

Administrational Aspects

أ - اعلان حالة الحرب على الفساد والمفسدين في دوائر الدولة والمجتمع بما في ذلك المحسوبية والرشوة واللصوصية واستغلال المال العام

ب - توجيه توصيات شديده اللهجة لدوائر الدولة باستخدام امثل لزمن العمل وعدم التلاعب بمشاعر المواطنين الذين يراجعون هذه

الدوائر لإكمال معاملاتهم ولا يتم التأجيل والبحث عن نواقص في المعاملات لترسيخ مبدا (تعال غدا) وغدا يجر غدا اخر مما يتعب الناس وينفرهم من الدولة ومؤسساتها.

ج - المواطن يحتاج ان يحترم وذلك بوضع قواعد بسيطة وغير مكلفة لدوائر الدولة من شأنها تسهيل انجاز معاملات المواطنين واستخدام اللياقة اللفظية والرمزية مثل (تفضل بالجلوس) (سنقوم بخدمتك) وما شاكل مما يشعر المواطن بان الموظف يخدمه وليس موجوداً للتنمر عليه

د - ترشيح مفتشين عامين سريين لمتابعة مستوى اداء الدوائر والوزارات لكشف مواطن الخلل والضعف وسوء التصرف ومعالجتها بالقوانين المناسبة

هـ - ينبغي ان يكون التوظيف والاستخدام في دوائر الدولة ومؤسساتها على اساس الكفاءة والمهنية والتدرج بغض النظر عن الانتماءات والولاءات

و - ان تفتح ابواب الوزراء والمدراء العامون للمقابلات والشكاوي وان لا تهمل تساؤلات الناس وشكاويهم

ز - وضع قوانين صارمة لتنظيم المرور لتجاوز الاختناقات والفوضى في الشوارع.

References

Bilton. T، Bonnett. K، Jones. P، Lawson. T، Skinner. D، Stanworth. M and Webster. A، (2002) Introductory Sociology، 4th ed. NY، Palgrave Macmillan

Boas. F. (1930) Anthropology: Encyclopaedia of the Social Sciences 2، 73-110 Smith. P. B & Bond M. H. (1998) Social Across Culture، 2nd edition. London، Prentice Hall، Europe

Borg. R. W، (1963) Educational Research: An Introduction، London، David McKay

Conrad J، (1967) the many worlds of man، London، Macmillan. Coser. L. &Rosenberg. B، (1976) Sociological Theory: A Book of Reading، 4th edition، N.Y، Macmillan Publishing Co. Inc.

Durkheim E، (1929) Elementary forms of religious life، new ed، 1995، Free Press Jones، Knopf.

Gergen. K. J and Gergen. M. M، (1981) Social Psychology، NY، Harcourt Brace Jovanovich، Inc.

Giddens A. (1989) Sociology، London Polity Press

Grimshaw A ، (1981) «Talk and social control» in Haralambos. M. F، OGorman. J & Heald. R، (1991) Sociology A New Approach، 2nd edition. Lancashire، Causeway Press، Ltd

Hilgard. E. R، (1962) Introduction to Psychology، NY، Harcourt Brace

Hogg. M & Vaughan. G. M، (1995) Social Psychology: An Introduction، London، Pearson Hall

Hogg. M & Vaughan. G. M، (2005) Social Psychology، 4th edition، Essex، Pearson Hall

Hogg. M. A and Vaughan. G. M، (2005) Social Psychology،

4th ed، Essex، Pearson Education Ltd.

Kroeber. A. L، & Kluckhohn. L، (1952) Culture: A Critical Review of Concepts and Definitions، Cambridge، MA Peabody museum

Larson. R. W، (1983) «Adolescent's daily experience with Family and Friends: Contrasting Opportunity Systems»، Journal of Marriage and the Family. 45. 737-50

MacIver. R. M & Page. C. H، (1967) Society: An Introductory Analysis، London، Macmillan and Co. Ltd

Marx K، (1904) A contribution to the critique of political economy، Chicago، Charles H. Kerr

Mead G.H، (1934). Mind، self and Society، Chicago، Chicago University Press.

Merton.R. K & Kit. A. S، (1976) «Reference Groups» in Coser. L & Rosengerg. B، Sociological Theory: A Book of Reading، 4th emdition. N. Y، Macmillan Publishing Co. Inc

Morris D، (1982) Man watching، a Field Guide to Human Behavior، London، Jonathan cope. Ltd.

Morris. D، (1969) the Human Zoo، London، Jonathan Cape. Ltd Pennington. D.C، (1993) Essential Social Psychology، London، Edward Arnold.

Rosenberg M and Turner R.H، (eds) Social Psychology، sociological perspectives، N.Y، Basic Books lnc

Sapir E. (1921) Language An introduction to the study of speech، N.Y، Harcourt، Brace and world، lnc.

Seaman. M، (1981) «intergroup relations» in Rosenberg. M and Turner. R، (eds) Social Psychology: Sociological Perspectives، NY، Basic Book، Inc.، Publishers. 379-41

Stringer M P، (1999) «Rethinking Animism: Thoughts from

the infancy of our discipline» Journal of Anthropology 5 (4) PP. 541-56

Sumner. W. G. (1904)، Folkways، London، Ginnand Co.

Taylor. E. B. (1891) Primitive Culture، Vol. 1، London، John Murray

White L. (1976) «The symbol» in Coser L A. & Rosenberg B. (eds) Sociological Theory: A Book of Readings، N.Y & London، Macmillan.

فهرس الأعلام

- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن احمد (١٩٩٢) المستطرف في كل فن مستظرف، بيروت.

- ابن الكلبي (١٩٩٥) كتاب الأصنام، ط ٣ تحقيق احمد زكي باشا، مكتبة دار الكتب المصرية.

- العبيدي، سعد (٢٠٠٤) قراءة في سياسة التدمير المنظم.

- على زيعور، (١٩٨٤) الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم: القطاع اللاوعي في الذات العربية بيروت (١٩٨٤) دار الاندلس.

- علي زيعور (١٩٨٤) صياغات شعبية حول المعرفة والخصوبة والقدر: المهاد الاناسي والتحتيات العلائقية في الذات العربية. بيروت دار الاندلس. لبنان. مكتبة دار الحياة للنشر.

- نعيسة، غياث (٢٠١٠) «الموقف الماركسي من الظاهرة الدينية» الاشتراكي، إعلام من اجل الثورة. Revesoc. me

ملحق

Appendix

الدينية

١- لا اله الا اللّه محمد رسول اللّه.

٢- دخيلك يا داحي الباب.

٣- يا رب سترك.

٤- اللهم احفظها واحفظ من فيها.

٥- يا ناضري صلي على النبي.

٦- هذا من فضل ربي.

٧- ابد واللّه يا زهراء ما ننسى حسين.

٨- بسم اللّه الرحمن الرحيم.

٩- ما شاء اللّه.

١٠- الملك للّه.

١١- كلا لن تسبى زينب مرتين.

١٢- اذا اردت ان تعرف نعمة اللّه عليك اغمض عينيك.

١٣- ما احلى الحياة في طاعة اللّه.

١٤- التدخين حرام.

١٥- بر الوالدين اهم من امك وأبوك.

الاجتماعية

١- الرجولة مو بسهولة.

٢- سجينة تذبحني ولا مرية تجرحني.

٣- خليك ذيب حتى ما تخيب.

٤- عضة اسد ولا نظرة حسد.

٥- لاتفرح يا شامت بعدني بخير.

٦- عينك ولك.

٧- الحسود لا يسود.

٨- لا تصيبنا بالعين كلها دين.

٩- لدغة عقرب ولا نظرة اجرب.

١٠- عشقت السفر من نفاق البشر.

١١- لا تكلمني تره مخطوبة.

١٢- مكتوب على المراية مخصص للصبايا.

١٣- رضاك يا امي.

١٤- يا رب زوجي.

١٥- عذاب الكية ولا عشك بنية.

١٦- اثنين مالهم امان البريك والانسان.

١٧- سايبة وكلفتها.

١٨- الدكتورة.

١٩- الخوة النظيفة.

٢٠- احسن ناس المرور.

٢١- احسن دائرة وبكيفي.

٢٢- عضلاتك الك والباب الي.

٢٣- السياقة ذوق واخلاق.

٢٤- ابتعد ٥٠٠ متر سيارتي طويلة.

٢٥- تحب تنخان، تخون تحب.

٢٦- عضة حية ولا حب بنية.

٢٧- كافي مكياج.

٢٨- لا للسرعة.

٢٩- تحياتي لمن دمر حياتي.

٣٠- اصدقاء الشدة قليلون.

٣١- انتبه السايق اول.

٣٢- انتبه السايق مختل عقليا.

٣٣- جاري البحث عمن يفهمني.

٣٤- حقوق المرأة في المطبخ.

٣٥- كلام النساء مكالمة لم يرد عليها.

٣٦- العراق يختار الحياة.

٣٧- ارتاحيتي من زوجتيني.

الاقتصادية

١- وراء كل رجل مفلس امرأة.

٢- افول بأستكان على عناد ابو البهبهان.

٣- من جد وجد ومن تخرج مقعد.

٤- كية مزيونه ولا ستاركس مديونه.

٥- مطلوب سكرتيرة.

السياسية

١- ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع.

٢- اذا نام الاسد شوية تأكله الكلاب.

٣- بإمكاني ادمر الدنيا بس ماما حاكتلي ما بدنا مشاكل.

٤- تكبر وتصير هامر.

٥- هـ هـ هـ اشوفك ومتشوفني.

٦- الزعيم.

٧- الشمري دولة وعلم.

٨- مشروع دبابة (السايبة).

٩- احترامي للحرامي.

١٠- تستاهل الحزن والبس عليك اسود.

١١- اني جرحي علج والعالم سنون.

١٢- ابواب السيارة مفتوحة ماله داعي كسر الزجاج.

١٣- انا مع جيشي.

١٤- الا طحين.

١٥- العراق يختار الحياة.

١٦- لا تصاحب شمس وتزعل الليل لان تشبع مذلة بوكت الغروب.

١٧- الراحو ما يرجعون يكليبي.

١٨- ليش كل حلو ظالم.

١٩- لا يا كلب جوز من حبهم وكافي.

٢٠- كن من تكون فانت من تراب.

٢١- حبيتك نعم اي وافتخر بيك

نفسية - عاطفية

١- ما شايل حواجب شايل سيوف - فهل من مبارز.

٢- همر ادوسني ولا بنية تبوسني.

٣- ميلي على ميالج ابو احمد خيالج.

٤- ثالث متوسط، طالق طالق طالق.

٥- توتو المتوحش/ الشرير.

٦- حتى هدف حياتي طلع تسلل.

٧- كيتي احلى من الكليات.

٨- دايخ في عالم بايخ.

٩- رميت همومي بالبحر طلع السمك يلطم.

١٠- امن ببرد الشتاء ولا تأمن بقلب النساء.

١١- يمه كليبي.


حتى هدف حياتي طلع تسلل


سيري فعين الله ترعاك





وراء كل رجل
طفران امرأة



ما شاء الله
للبيع
لاسباب عاطفية



يارب زوجني
F-16

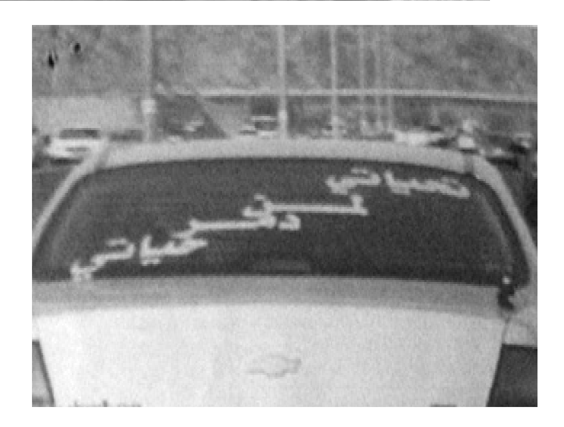



من جد وجد-ومن تعثر قعد




YX04 AXB
مطلوب سكرتيرة


لا للطائفية



intelligence with its ability to create unsurpassable levels of destruction. It is masked with fundamentalist religious fiction، authorising the scaremongering within the anarchy to continue the relentless invasion until dissolution is achieved، if ever.

Iraq's wealth، successes and future are being stolen every single day. If we are to be fair، we cannot blame all injustices on the west، central intelligence، or the superpowers of the world who have 'legally' looked after their own interests. Society has become jaded and ignorant، with a blasé look at the destructive hands in Iraq's cooking pot، rather than hold any moral stance they chose to eat.

The value system has been damaged beyond repair، without divine intervention it is hard to foresee a positive future for what was once Mesopotamia، what once held Babylon، from anything but war-torn destruction. Perhaps it will remain in despair until the day of judgement or perhaps the mirror of self-reflection will be stumbled across before then. A man can only hope.

Sarah Alwan

cials to commanding military seniors. The second nature of deceit has dripped down into the most basic of foundations making up society. From an outlying quality once ostracised by society as a whole، it has now become a social phenomenon embodied by even the most righteous.

The 2003 invasion of Iraq was the last nail in the coffin، that is the Iraqi social value system. The invasion dissolved the Iraqi institution to a point of no return، leaving the already vulnerable society in complete chaos and disorder.

The doors of every establishment that is able to serve society's needs، banks، hospitals، schools، factories and libraries were left open to the illicit opportunists of society. They have been victorious in leaving every stone unturned or rather leaving it as rubble in the aftermath of their influence. The country is but a shadow of itself.

The most difficult thing to observe in this time of longstanding crisis، has been the aimless leadership، with little to no qualification or focus it has left a country once making international strides with its powerful influence into a directionless purgatory.

The international superpowers' agenda is ever-present ensuring that Iraq is a country stuck in the dark ages. It is well documented that some regional and international intelligence forces heavy involvement، presenting itself as the west in extremists clothing، a construct concocted in the helm of central

Abstract

This book will attempt to recreate some of the harsh but upsetting realities that are the aftermath of over three decades of inequitable wars، justified with thinly veiled fictional propaganda. Millions of men، women and children have been left physically handicapped، and mentally crippled beyond a point of recognition.

Strides in medicine have proven it possible to cure some of the most debilitating physical ailments as well as the most intricately complex mental health issues. However، the anarchy that now dictates the morality and ethicality of the system and its leadership، or lack thereof، would perplex Hippocrates and Freud alike.

The un-legitimised wars coupled with the overbearing totalitarianism، international sanctions، continual treason and devastating poverty have pushed every aspect of a long lost social system into being an inconceivable thought. Consequently، everyday virtues that were once a given norm are now an albatross around the most foolish of men's neck. Morality which once deemed kindness، honesty and sincerity its' synonyms have been morphed by its torturous reality into hypocrisy، deceit and guile as a norm.

Dishonesty was a trait that was often displayed by those in notoriously high positions of society، from government offi-

Dedication

It has been a privilege to write a small abstract for my father’s book. Every headline and news report has become painful to read، more so when I have delved into the rich culture and history Iraq boast. As my fathers the place of birth، it holds many of his most fond memories. My father is one of the most intelligent men I have known، coming from a culture that encourages definitive gender roles and the modus operandi that comes with that. He has broken boundaries and allowed me to question، to probe and to argue what I believe to be right and wrong. He has allowed me to question everyday life from the most minuscule aspects of language to the enormity of existentialism in an environment where it is deemed ‘normal’ to be a thinker. Perhaps it has not been as challenging to my father as it would to any other as he is the original ‘thinker’، he paved the way for my thought process and fed my mind with his ever encouraging attitude to education and communication. I think him an extraordinary man to have broken social and cultural barriers and just be an exceptional human being.

Thank you, Baba.

ثقافة الموت

صورة المجتمع العراقي في مرحلة ما بعد الخراب

Culture of Death:
The Image of the Iraqi Society in Post-Wreckage Era

هذا الكتاب

إذا أردت أن تقرأ كتاباً ابدأ بالمقدمة فإن أعجبتك فلعلك تجد فيه ما ينفع والا ليس عليك إلا أن تحمله إلى أقرب مقبرة وتطرحه جثة بين الجثث.

فالتمس لنفسك عذراً وأنت تتصفح هذا الكتاب، فإنك قد تحتاجه يوماً ما وأنت في أزمة، وقد تحتاجه وأنت خارج من أزمة.

فالكتاب الجيد مثل الجليس الحسن كما يقول الابشيهي، والجليس الحسن مثل العطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته، والكتاب الرديء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه..

دارُ العـودة ـ بيروت






ISBN 978-9933-920-86-9

تصميم الغلاف: جمال الأبطح